العرب

مجلة تُعنى بتاريخ العرب
وآدابهم وتراثهم الفكري

أسسها حمد الجاسر سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م)

صاحب الامتياز المسؤول: معن بن حمد الجاسر

الجزء الأول والثاني – السنة ٥٤

رجب وشعبان ١٤٣٩هـ
أبريل – مايو / نيسان ـ أيار ٢٠١٨م

رئيس التحرير

أ. د. أحمد بن محمد الضبيب

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. أسعد بن سليمان بكر عبده

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

أ. د. عبدالعزيز بن ناصر المانع

أ. د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق

العنوان:

التحرير: واصل ٢٧٩٢ – شارع أبي دجانة – حي صلاح الدين – وحدة رقم: ١

الرياض ١٢٤٣٢ – ٦٧٥٢

ص. ب: ٦٦٢٢٥ الرياض ١١٥٧٦، المملكة العربية السعودية

هاتف: ٢٦٩٠٥١٢ (٠٠٩٦٦١١) – **مباشر**: ٢٢٥٣٦٨٣ (٠٠٩٦٦١١)

الاشتراكات: ٦٩٧٨ شارع حمد الجاسر – حي الورود – الرياض

ص . ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١ – المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٠٤٦٦٤ (٠٠٩٦٦١١) – **لاقط**: ٤١٩٤٥٠٣ (٠٠٩٦٦١١)

الصفحة الإلكترونية: www.hamadaljasser.com

للمراسلة: arab@hamadaljasser.com

ضوابط النشر في المجلة

١. أن يكـون البحث داخلاً ضـمن اهتمامات المجلة وهي الموضـوعات المتعلقـة بتاريخ العرب، وآدابهم، ولغتهم، وتراثهم الفكري.

٢. ألا يكون البحث مقدمًا للنشر في مجلة أخرى، وأن يكون في نسخته الأصلية.

٣. أن يتأكد الكاتب من سـلامة اللغة، وحسـن الترقيم والتوثيق، وضبط الألفاظ غير المألوفة بالشكل الصحيح.

٤. أن يتسم النقد بالأسلوب العلمي الخالي من الإساءة إلى شخصية المؤلف أو الباحث.

٥. لا تُعاد البحوث إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تُنشر.

٦. ترتيب البحوث داخل المجلة يخضع لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب.

٧. الموضوعات التي تُنشر في المجلة تعبّر عن آراء كاتبيها وليس بالضرورة عن رأي المجلة.

٨. المكاتبات توجه إلى رئيس التحرير.

٩. يفضل إرسال المادة إلكترونيًا في ملف (وورد) إلى عنوان المجلة:

arab@hamadaljasser.com

الاشتراك السنوي:

٦٠ ريالاً للأفراد و٢٠٠ ريال لغيرهم.

ثمن الجزء ١٠ ريالات.

الإعلانات:

يتفق عليها مع الإدارة

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤١٨

ردمد(ISSN)۲۶۷۱-۱۳۱۹

الفهرس

افتتاحية	أ. د. أحمد بن محمد الضبيب	٧
شعر ابن قاضي ميلة	أ. د. محمد عويد الساير	٩
الأشجان وقريتاها – الحنا والجباء	د. محمد ظافر آل عساف	٤١
بين الغربة والاغتراب	نادية العزاوي	٦٥
ثنائية الإبداع الشعري والممارسة النقدية (٢)	د. عبدالرازق حويزي	٧٩
الخيال الشعري		
بين الشابي ومحمد الخضر حسين (٣)	د.إبراهيم عبدالفتاح رمضان	٩٧
رسالة اتلاميد إبداع نثري وتقليد محظري (٢)	د.محمدن بن أحمد المحبوبي	١١٥
أعلام العرب:		
سعود بن هذلول	د. عبدالرحمن الشبيلي	١٣٣
مكتبة العرب: عبدالله العثيمين مؤرخاً	إبراهيم باجس عبدالمجيد	١٣٩
إهداءات إلى مكتبة العرب		١٤٣

اللغة العربية بين الاحتفال والاعتقال

د.أحمد بن محمد الضبيب(*)

منذ سنّت منظمة اليونسكو يوم الاحتفال باللغة العربية، وحددت له الثامن عشر من شهر ديسمبر من كل عام، أخذت تهب على اللغة العربية عواصف من المحاضرات والاحتفالات والندوات بعضها يقام في بعض العواصم العربية (وليس كلها)، وبعضها وجد مركزه في قاعات منظمة اليونسكو في باريس. وتمثل هذه المناشط، التي تتسارع بقوة ملحوظة في وقت واحد، ثم تخمد في نهاية الأسبوع الأول من ذلك التاريخ، مهرجانا صوتيًا عظيمًا يضم أنواعًا من الطروحات التي تشيد باللغة العربية، وتبين محاسنها، وتدعو إلى إنقاذها مما تعانيه هذه الأيام من احتقار في بيئاتها المحلية، ومن نداءات في بعض البلاد لوأدها وتغليب لغات محلية عليها، ومن نكران لدورها في الحياة، وتدعو إلى تمكينها والذود عنها.

ومما لا شك فيه أن كثيرًا من هذه الطروحات والاحتفالات صادق وإيجابي، يهدف إلى خير هذه الأمة، ويذكِّر بموضوع مهم من موضوعات حياتنا المعاصرة نفتقر إليه في بلادنا العربية، وهو الاعتزاز بلغتنا؛ لا من أجل كبريائنا الوطنية، أو تثبيت هويتنا العربية والإسلامية، أو كونها لغة كتابنا المقدس وحسب، ولكن أيضًا لكونها القنطرة المثلى لنقلنا إلى الحداثة، وتحقيق التنمية المنشودة، وجعلنا نشارك الأمم الأخرى في بناء الحضارة المعاصرة.

ما يقال هنا وهناك في حق اللغة العربية كي تكون قوية عزيزة صحيح، وكل هذه المناشط أحرى بها أن تكون بمثابة الجرس الذي ينبه الغافل، ويحض المتكاسل، ويشجع العامل، فهي بمثابة الذكرى التي أخبرنا الله تعالى بانها ﴿تنفع المؤمنين﴾ .

لكن السؤال الذي يستحق الإجابة عليه: هل نحن مؤمنون حقًا بأهمية اللغة في

حياتنا؟ إن من الواضح أننا، مجتمعات ومؤسسات وحكومات، لم نصل بعد إلى هذه المرحلة من الإيمان؛ إذ لو كنا كذلك لما اكتفينا بالأقوال دون الأفعال، ولو كنا كذلك لما اعتقلت اللغة العربية في الزوايا الضيقة، ولما صُدَّت عن العمل في أروقة جامعاتنا، وفي مدارج أسواقنا، وفي عنابر مستشفياتنا، وفي كثير من مدارسنا من الروضة حتى المرحلة الثانوية.

ومن آيات هذا الاعتقال من قبل مسؤولينا، وإصرارهم على التنكر للغة العربية في مجالها الحيوي في البلاد العربية أنهم لا يكادون يستمعون إلى النداءات، ولا يقبلون المناظرة أو النقاش في موضوع اللغة وسيادتها في المجتمع. فهم يتركون من يتحدث يقول ما يشاء ولا يكلفون أنفسهم الرد أو النقاش. بل على العكس نجد الإصرار على تجاهل هذا الموضوع عمليًا والمضي في الطريق المعاكس .

والأعجب في هذا الأمر أن لدى المسؤولين في هذه الدول أنظمة ولوائح، وتعليمات أصدرتها مختلف الحكومات خصصت للعناية باللغة العربية، وضرورة تفعيلها في التعليم والمجتمع، والحفاظ عليها، وعدم تجاهلها. ومن أهم هذه القوانين الدساتير وأنظمة الحكم التي تنص على أن اللغة العربية لغة البلاد الرسمية. وهذه المادة في حد ذاتها جديرة بأن تعطي حماية للغة في بيئاتها الوطنية، وأن يصدر حولها أنظمة تفسرها وتلزم الجميع بالتقيد بها، شأن الأمم الإخرى التي تحمي لغاتها الوطنية من هجمات اللغات الأجنبية، وخير مثال على ذلك فرنسا.

نعم، إن التذكير بأهمية اللغة مهم وجميل، لكن الأجمل منه أن نتقدم كل عام بخطى حقيقية لتمكين العربية في حياتنا المعاصرة، وجعلها فاعلة بقوة في بيئاتها المحلية، وذلك يكون أولاً بتفعيل ما لدينا من أنظمة وتعليمات، والإضافة إليها، وسد ثغراتها، وتأييدها بقوة التنفيذ والمراقبة، وثانيًا بإجراء تخطيط لغوي متدرج وفاعل، يفك أسر لغتنا المعتقلة في مواقع متعددة من فضاءاتنا، ويطلق سراحها لتمارس نشاطها الحضاري والإبداعي في حياتنا المعاصرة.

(*) رئيس التحرير

ابن قاضي مِيلة
أبو عبد الله محمد بن محمد التنوخي
(حياته وشعره)

جمع وصنعة ودراسة وتحقيق

أ. د. محمد عويد محمد الساير(*)

هذا- بإذن الله وتوفيقه - جمع وصنعة لشعر ابن قاضي مِيلة (من شعراء القرن الخامس الهجري) الشاعر الذي طالت شهرته في الآفاق كثيراً وفي المغرب والأندلس، حتى وصف في شعره أنه يحذو حذو ابن ربيعة في المشرق.

ولقد رتبتُ الشعر المجموع على قسمين: الأول منهما جاء للشعر ثابت النسبة، صحيح الحقيقة لابن قاضي مِيلة ونتاجه الأدبي. والآخر هو للشعر متدافع النسبة بين ابن قاضي مِيلة وبين باقي الشعراء، ولاسيما المنازي الذي اضطربت بعض الأشعار في النسبة والصنعة الفنية بينه وبين شاعرنا، ومازال يخامرني شكٌّ في نسبتها إلى أحدهما نسبة نهائية؟

وأما باقي الخطوات، فسيعلمها القارئ والدارس من خلال خطوات المحقق وجهده في مكانه من هذا العمل.

وأما عن الشاعر ابن قاضي ميلة، فيمكنني القول من خلال الشعر المجموع

له: إنه شـاعر مثقـف، وإن خيوط التجربة الإبداعية الشـعرية لديه متكاملة إلى حد بعيد. فقد ترجم له الناقد والشـاعر وتِربه ولِدَته ابن رشـيق، ومدحه وأثنى عليـه، وكذلك مدحه ومدح شـعره كل من ترجم له وأورد قريضـه، حتى في كتب البلاغة والنقد، كما سيلحظ القارئ من هوامش الدراسة وتخريجات النصوص الشعرية، وهو ما يعدُّ إضافة حقيقية وأنموذجية للشعر العربي المغربي والعربي.

ومما يعدُّ إضافة حقيقية ومنهجية أيضاً: هو أن الشاعر قد يكون من شعراء العرب الصـقلِّيين؛ إذ لدينا نصـوص في مدح أمراء صـقلية، وفي حياته ما يؤكد أنه مرَّ بها أو عاش فيها، ولذا يمكننا أن نضـع شـعره مع ديوان الشعر العربي في صـقلية، ولاسـيما وأن ابن سـعيد في **رايات المبرزين وغايات المميزين** ترجم له ضمن هذه المدينة، ولا أدري كيف تناساه المحققون في تحقيق شعره وهم يجمعون ويوثقون شـعر شـعرائها؛ مثل: د. إحسـان عباس، ود. عبدالرحيـم الجمل، ود. فوزي عيسى، ود. أسامة اختيار؟!

في النهاية لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل شكري ومحبتي إلى أستاذي الدكتور عبدالرازق حويزي، وإلى صـديقي وأخي الدكتور محمود شـاكر ساجت؛ إذ لهما عليَّ وعلى العمل أفضال كثُرت.

ومن الله التوفيق والإصابة...

الشاعر ابن قاضي مِيلة دراسة في حياته ومكوناته المعرفية والثقافية:

سـمّاه ابن رشـيق القـيرواني عبدالله، وكنّـاه أبا محمد. فهـو - عنده- أبو محمـد عبـدالله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضـي مِيلـة[1]. وكذلك هذه التسمية والكنية والنسب جاءت عند ابن خلكان في **وفيات الاعيان**[2]. وأما باقي أصحاب التراجم والطبقات الأدبية، فذكروا أنه أبو عبد الله محمد بن محمد[3]. وهذا ما جعلنا نميل إلى هذه الكنية وهذا الاسـم لكثرة ورودهما، ومن ثم توافق الجميع عليهما، والله أعلم.

وأما مِيلة، بالكسرة والسكون، فهي مدينة بأقصى إفريقية، وعلى أربعة مراحل من قلعة بني حماد، وبينها وبين بجّاية ثلاثة أيام، وهي في القطر الجزائري اليوم[٤].

ابن قاضي ميلة من شعراء القيروان. هذا ما حدَّث به ابن رشيق، وترجم له وأثنى عليه كثيراً وعلى شعره، وهو الناقد والأديب وصاحب المؤلفات والاختيارات. كذلك هو من شعراء صقلية، صحب أباه إلى هذه المدينة. ويبدو أنه أقام فيها ووصف ما فيها من بناء، ومدح من فيها من الأعيان والوزراء، كما هو واضح من النصوص الشعرية المجموعة في هذا العمل.

أما هل دخل ابن قاضي مِيلة الأندلس أو رحل إليها؟ لا تفيدنا الأخبار الواردة في ترجمته، على كثرتها وكثرة من ترجم له وأورد شعره، على أنّ ابن قاضي مِيلة دخل الأندلس أو إحدى مدنها وعاش فيها أو في كنف حكامها. ولكن من خلال التراجم الأندلسية، ومن خلال بعض النصوص الشعرية، ولا سيما التي ذكرت أوصاف الحيوان والغرق في البحر، ووثَّقت لبعض الأحداث، كما في قصيدته المدحية الفائية الطويلة - نسبياً- يمكننا القول: إن ابن قاضي مِيلة ربما رحل إلى الأندلس أو مر بها في حياته، وهذا الأمر يبقى قيد الشك والظن، لربما تطلعنا المصادر في المستقبل على ما يؤكده أو يمحوه، أو ما يتيح للباحثين القادمين من مظانَّ جديدة تسعفهم في التأكد من هذه الحقائق أو عدمها.

لا تُعرف السنة التي ولُد فيها شاعرنا، ولكنها تبدو في بواكير من القرن الخامس من خلال كلام ابن رشيق وما ترجم له. فإذا علمنا أن وفاته - ابن رشيق- كانت سنة (٤٥٦هـ) ، أدركنا بوضوح أن الشاعر عاش في أوائل القرن الخامس، وأن ولادته كانت في أواخر القرن الرابع الهجري، ويزداد هذا التصور وضوحاً عندما نقرأ قصيدته الفائية في مدح ثقة الدولة الذي انتهى حكمه، وانتهت حياته سنة (٤٢٧هـ) ، كما يقول أصحاب التراجم وكتب التاريخ والأدب في صقلية. وهذه القصيدة أنموذج فني محكم، تدل على أن ابن قاضي مِيلة

يوم نظمها كان قد قطع شـوطاً من صـنعة الأدب وحنكته، وهـو ما مدحه به ابن رشـيق. كما أنها تدل أنه عُمِّر طويلاً حتى وصـل إلى هذه الصنعة والحنكة. فلذا الراجح – والله أعلم– أنه ولد في أواخر القرن الرابع، وعاش ثلثي القرن الخامس الهجري في القيروان وصقلية، وربما الأندلس ولو ضيفاً.

ومن شـعره نستشف أن ابن قاضي مِيلة كان ذا أخلاق فاضلة؛ فلم نره يكثر من الغزل، أو من شـرب الخمرة، أو حتى الاسـتجداء بالشـعر، وإنمـا كان يؤثر الوصـف ولا سـيما في المظاهر الطبيعية، وكذلك الغـزل اللطيف، والتعريض بما يسـتحق أن يعرّض به المرء في دنياه، ورأينا في شـعره بعضاً من السمات الدينية، ولا سيما في مدائحه.

وأما عن حياته الاجتماعية، ويا للأسـف الشديد، يبدو أنها ضاعت حتى من خلال شـعره. ولكن علاقته ببعض أترابه ولِدَاته كانت جيدة ولا سيما في صقلية؛ فلـه نص في التهنئة، ويخبرنـا غير واحد ممن ترجم له أن له صـديقين نديمين ألَمَّـت بهما القطيعة، فندما ثم عادت العلاقة بينهما بسـبب دار بنيت لأحدهما وهنأه الآخر والباقون ومنهم ابن قاضي ميلة.

وعـن حياته الوظيفيـة، فإنه أُلحق في أحد دواوين الخاصـة، وعمل بها على حيـاة وحكم ثقـة الدولة في جزيرة صـقلية، ويبـدو أنه كان موسـر الحال هانئ الحياة مرتاح العيش، فلم نلحظ في شعره المجموع ما يخدش هذه الحياة أو يكدر صـفوها، بل بالعكس من ذلك فنرى شـعره الغزلي المحافظ في الأغلب، ونرى في شعره الظرافة في الوصف للطبيعة، أو لوصف للغناء، أو لوصف الحيوان...

ومن هنا فشاعرنا ابن قاضي مِيلة – ومن خلال شعره– يبدو صاحب المنزلة الطيبـة عنـد الأمير المحب للحيـاة، البعيد عـن الأحزان والألم، عاشـ في أحلى الأماكن والمدن، وفي قمة القرن الخامس الهجري، ذاك القرن الذي شـهد التألق والإبداع والتميز للحضارة العربية في الأندلس والمغرب بكل أشكالها.

شعر ابن قاضي مِيلة دراسة في الاتجاهات والأغراض الموضوعية:

إن ما وصل إلينا من شعر ابن قاضي مِيلة يخبرنا أنه نظم في أغراض معينة من أغراض الشعر العربي؛ مثل: المديح والوصف والغزل والخمرة (من قَبيل الصنعة الفنية) والرثاء.

ففي المديح له أكبر نصوصه الشعرية[٥] ذلك النص الذي طار شهرة واختياراً في كتب الأدب والتراجم، وكل من ترجم لابن قاضي مِيلة (المادح) أو لثقة الدولة (الممدوح). ولطوله النسبي عن باقي نصوص الشاعر، بل ويعد من النصوص الطويلة عند أهل الأدب والنقد - قديماً وحديثاً - فقد كثرت فيها اللوحات: من المقدمة الغزلية إلى اللوحة الوصفية إلى اللوحة الدينية، وإلى الخاتمة التي عادة تتكلم عن الممدوح وعائلته.

ويبدو الشاعر ابن قاضي مِيلة - على عادة الشعراء العرب في غرض المديح - مصوراً بارعاً، أحسن التقاط الكثير من الصور والمعاني، وأودعها لسمات ممدوحه وصوره وما عُرِفَ عنه. وكذلك في اختيار الألفاظ الجزلة ذات الدلالة والمعاني القوية التي تلائم الممدوح وتناسب غرض المديح، وكان فعلاً نصاً محكماً وإبداعياً ولكأنك تقرأ شعراً من المديح لشاعر أموي أو لشاعر عباسي. وهذا الأمر من المديح وصفاته جرى لابن قاضي مِيلة في نصوص شعرية أخرى.

وأما مع الوصف، فللشاعر ابن قاضي مِيلة بعض من النصوص الوصفية[٦]، وأغلبها في الحيوان والماء، فضلاً عن وصف الطبيعة الحضرية؛ كبناء البيت وزخرفته لأحد أصدقائه الذي هنأه به وبالمسكن الجديد. والوصف عند ابن قاضي مِيلة صورة متناسقة الأبعاد من المنظر إلى المسمع إلى المخبر، دفعته في الإحسان إلى ذلك ذائقته الباصرة وساندته في الإتقان حسن التعبير ورشيق اللفظ والعبارة، ولاسيما مع المقطوعات التي تكون صالحة ومميزة في هذه الأغراض، ولا سيما عند الشعراء المغاربة والأندلسيين أكثر منها عند شعراء المشرق.

ومع الغزل[٧] عاش شاعرنا بعضاً من آهات المحبين ولوعة العشاق. ويبدو لي أن هذا الغزل، هو وصنوه شعر الخمرة، جاءا عند شاعرنا ابن قاضي مِيلة من قبيل الصنعة الفنية، ولاسيما من قبيل التجربة الحياتية الحقيقية. ولذا كثرت في غزله ألفاظ الحسن والجمال والنضارة، وكأنها مشاعر شاعر اطَّلع على شعر غيره، وجاءت في نصوصه لفظاً ومعنى ودلالة دونما تجربة أو ذكر لاسم المحبوب ومكانته، وما فعله الشاعر معه من مراسلات وغراميات....على عادة الشعراء الغزليين في هذا الجانب.

ومع الخمرة وذكرها وما تفعله في نفس الشارب رأيت لابن قاضي مِيلة بعضاً من هذه المعاني في بعض من نصوصه[٨]، وهي تأتي مع الغزل تجربةً وفناً، وهذا أيضاً مع ما كان من شعر ابن قاضي مِيلة في شعره الذي جمعناه له. وكما أسلفت يدلّ على أن الشاعر مرّ في هذه الأغراض في شعره من قبيل الصنعة الفنية، لا من قبيل التجربة والممارسة الحقيقية، فما رأينا الألفاظ النابية ولا التهتك ولا الابتذال في المعاني، أو الإغراق في المجون على عادة الشعراء في هذه الأغراض، وإنما رأينا الشاعر الموزون والنفس العالية التي لا تقع في المحظور، ولا تخالط المنكر.... والله أعلم.

وأما عن الرثاء[٩] فله نص في رثاء فتىً (كما يبدو من النص) مات غرقاً، والشاعر ابن قاضي مِيلة يستسقي له ويدعو له بالسُّقيا، مع العلم أنه مات غرقاً وفي البحر. وهذا - ويعلم الجميع من دارسي الأدب العربي - من قبيل الملاءمة الفنية مع غرض الرثاء قديماً والدعاء بالسُّقيا لقبر الميت من الجاهلية وإلى عصور أخرى في الشعر العربي الكبير وفي هذا الغرض الأصيل.

وعن آخر الأغراض نظماً عند شاعرنا ابن قاضي مِيلة، فكان في التعريض[١٠]، إذ وصلت إلينا مقطوعة واحدة لا ترقى إلى شعر الهجاء أو الذم في أدبنا العربي، أو حتى في شعرنا المغربي والأندلسي.

ويحاول ابن قاضي مِيلة النيل من رجل على موعد أخلفه معه، وينصح له

ويقدم له موعظة بعدم الغرور بالمنصب أو المكان الذي يظن فيه البشر أنهم أكبر من الآخرين، وأنه غير معذور من الآخرين إذا قصر في الكلام، أو أخلف في وعد، أو جانَب الصواب والحقيقة والرأي في أيٍّ من مسائل الدنيا. وهذه الأخلاق يستحق أن يعتب لها شاعرنا ابن قاضي ميلة وغيره من الناس، ولاسيما مع أصحاب الجاه والرِّفعة والسمو والمكانة... كما نراهم ينعتون أنفسهم بأنفسهم.

هذه كانت أغلب الأغراض الشعرية التي استطعت أن أصل إليها من خلال شعر شاعرنا ابن قاضي ميلة ثابتة النسبة إليه والمجموع في هذا البحث. ولعل قادم الأيام يطلعنا على الجديد من شعره، ومن ثم الجديد من أغراضه، فيكون شعره صفحة رائعة من صفحات الشعر العربي في القيروان وصقلية، ويكشف المزيد من أحداث وتواريخ هذه المدن وجوانبها الحضارية والفكرية والأدبية.

شعر ابن قاضي ميلة دراسة في السمات والخصائص الفنية:

ابن قاضي ميلة شاعر أحسن في استخدام أدواته الشعرية من البناء إلى المستوى التركيبي في الأساليب والألفاظ، وإلى معجمه الشعري، في صوره ومستواها الدلالي، وإلى الموسيقى والأوزان التي استخدمها وجاءت في شعره.

البناء في القصيدة: كانت القصيدة ذات وحدة موضوعية، وأجزاؤها مترابطة ومحكمة البناء، وأشار ابن معصوم إلى أنه (من ناصح حسن التخلص)[11] قول ابن قاضي ميلة:

وعاذلةٍ في بذل ما ملكت يدي ... لراج رجائي دون صحبي تعنفُ
تقول إذا أفنيت مالَك كلَّه ... وأحوجت من يعطيكه؟ قلت: يوسفُ[12]

ولشهادة ابن معصوم هذه عن الشاعر وقصيدته فضل ومنَّة؛ إذ عدّه ممن أحسن التخلص وأحسن في استخدام الفنون البلاغية. وهذه شهادة كبيرة لشعر ابن قاضي ميلة على قلَّته وقلة أغراضه.

وكذلك الشأن مع باقي لوحات القصيدة وحتى مع القصائد الأخرى أحسن

ابن قاضي ميلة في الكثير من المطالع، وفي أغلب الخواتيم وفي الانتقال بين لوحات النص ببراعة وحكمة أدبية وفنية.

وفي المقطوعات، وهي الأكثر في شعره، كان بناؤها متماسكاً يستوفي الفكرة ويتم معانيها، أحياناً رأيته يستند إلى الحوار، وأحياناً إلى فنون البلاغة؛ لهذا جاءت مقطوعات متناسقة ومعبرة عن الغرض إلى حد كبير.

وفي المستوى الدلالي وصور الشاعر الشعرية رأيت عند ابن قاضي ميلة صوراً من التشبيه وبعضًا من الاستعارات والكنايات؛ إلا أني في الكثير من شعره الواصل إلينا رأيتُ شعره ذا صور مباشرة والألفاظ فيه حقيقية تقوم على التعبير المباشر دون الاتكاء على الخيال كثيراً. ووقفت عند ملامح التشبيه الضمني وأهميته في رسم صور الشاعر الشعرية، مثل قوله في الرثاء:

وقد كنت أستسقي له القطر دائباً ... وأستودع الريح السلام المرددا
فكان الذي استودعتُ أولَ خائنٍ به ... والذي استسقيتُ من أعظم العِدا
فتىً فاظ بين الماء والريح روحُهُ ... وما زاره أهل ولا زار ملحدا[١٣]

وفي مثل قوله في المديح:

حيث التقى أُسدُ العرين وشادنٌ ... تحت اللحافِ وصارمٌ وسوارُ
قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ... ولقد عهدتك بالدخيلِ تغارُ
أأمنت نشر حديثنا فأجبتها ... هذا الذي تُطوى به الأسرار[١٤]

وقوله متغزلاً:

وتعجبني الغصون إذا تثَنتْ ... ولا سيما وفيهنَّ الثمارُ
إذا اهتزت نهودٌ في قدودٍ ... فقل للحلم قد ذهب الوقارُ[١٥]

فكل هذه الصور قامت على التشبيه الضمني الذي تُلمح علائقه بين المشبَّه والمشبَّه به ذهنياً، وخلق الشاعر صورتين متراكبتين، وترك للقارئ وجه الشبه

وتخيّله والربط بينهما لقرائن معروفة، فضلاً عن الصورة الكلية[١٦] التي رأيت ملامحها جلية عند ابن قاضي مِيلة في نص من نصوصه. هذا ناهيك أيضاً عن استنطاق جيد للصور بالحواس، ولاسيما الصور السمعية التي جاءت في بعض نصوصه الشعرية الوصفية؛ كقوله في وصف الحمامة الصادحة فوق الأيْك في الليل:

ومرنَّةٍ قدحت زناد صبابتي ... والبرقُ يقدحُ في الظلام شرارُهُ
ورقاءُ تأرق مقلتي لبكائها ... ليلاً إذا ما هوّمت سُمَّارُهُ
إيهٍ بعيشك يا حمامة خبِّري ... كَيف الكثيبُ ورندهُ وعرارُهُ
أترنّحت بجوانحي أثلاتهُ ... أم أينعت بمدامعي أزهارُهُ؟[١٧]

فالألفاظ السمعية المباشرة (المرنة - الرنين - ورقاء - صوت الحمام - الخبر - الكلام - البكاء - صوت الحزن) هي التي خلقت هذه الصور كلّها. هذا فضلاً عن الصورة المرئية أيضاً في (قدح الزناد، قدح البرق، الظلام، الليل، السُّمار، الرند، العرار، الكثيب، الترنح الأزهار).

لقد أسبغ ابن قاضي مِيلة على مقطوعته هذه كل مقوِّمات الصورة الحسية والصورة من خلال أنسنة المكان المعيش والمكان التراثي في الكتب والرند والعرار، وما فعلت هذه الأماكن من دلالة، وكيف كانت عند شاعرنا العربي القديم في الجاهلية والإسلام. وربما لا حاجة لي في إطالة التعليق وزيادة الشرح.

ومن خلال الصورة السمعية وصورة الحمام نفسها، وما تقوم به من رسم للصورة السمعية ومدلولاتها عند شاعرنا ابن قاضي مِيلة، أو عند عموم شعراء العرب في المشرق والمغرب والأندلس، تأتي هذه الصورة برسم مفارقة ضدية يسخّر لها الشاعر أي للمفارقة كل أسباب النجاح والتميّز من الألفاظ إلى التراكيب إلى الوزن... فضلاً عن الصورة طبعاً. يقول في حمامة تصدح:

ورقــاءُ ضافيــةُ الجنــاحِ تسثَّرت عنــا بــغــصــنَيْ بانــةٍ وأراكِ
غـنّـت فــأذكـرت المشـــوق ببثها وتمايلت فعل الصحيح الشاكي
وعجبتُ من ضدين في أوصافها خلع الخليع ولبسةِ النُّسَّاكِ[١٨]

في حديثنا عن القوافي والأوزان، فالشاعر استخدم أغلب البحور الشعرية الطويلة، وكذلك نظر بطرف خفيٍّ جداً إلى بعض البحور القصيرة، كما هو مدوَّن وثابت مع أوزان النصوص الشعرية المجموعة.

وبرز التصريع وبعض التجنيس وتكرار الحروف والتضاد التي خلقت صوراً إيقاعية متحركة كسرت من رتابة البحور الطويلة وثقلها إلى حد ما، ولو أنها كانت محدودة الاستخدام تصل إلى القلة في بعض النصوص، فهو شاعر اعتمد التصريح المباشر والتعبير الحقيقي بدون الخيال وبدون الاتكاء على المحسِّنات اللفظية إلا قليلاً.

واستخدم الشاعر ابن قاضي مِيلة أغلب حروف الرَّويِّ المستخدمة والشائعة بكثرة في الشعر العربي الكبير؛ كـ (الباء والراء واللام والميم)، ولم يستخدم الحروف الصعبة أو قليلة الاستخدام الثقيلة؛ كـ (الضاد والطاء والظاء). وهذا ما يجعلني أقول: إنه شاعر مثقف، استطاع أن يصل بشعره إلى مسامع قرائه ومتلقِّيه ببراعة وسهولة.

فهو شاعرٌ اعتمد في شعره على إيصال ما رآه وما سمع به أو نظمه من قبيل الصنعة بما يُعرف به النظم، فكان بشعره الواصل إلينا قمة أدبية وشعرية من قمم أدبنا العربي الكبير في مغربه.

عمل المحقق وخطواته في جمع وتحقيق شعر ابن قاضي مِيلة:

ابن قاضي مِيلة شاعر من المغرب استحق شعره الخلود والحفظ على مر الأزمان. ولقد ترجم له الكثير من الباحثين والدارسين والمصنفين أصحاب التراجم والطبقات الأدبية من القدامى والمحدَثين من أهل المشرق ومن أهل

المغرب ومن أهل الأندلس... أيضـاً. لذا فكرت مليًّا في جمع ما تبقَّى من شـعره. وكان أكثر من ساعدني على ذلك كتاب ابن رشيق القيرواني **أنموذج الزمان من شعراء القيروان** الذي يعدُّ بحق الأنموذج في الجمع والتراجم لصقع بهيٍّ وجميل من أصـقاع بلداننا العربية تاريخاً وحضارة وأدباً. ثم فتح لي هذا الأنموذج كتباً أخرى يراها القارئ الفاضل في هوامش الدراسة وتخريجات النصوص الشعرية المجموعة من مظانِّها. وهي مصـادر والله جليلة ونفيسـة، تُسـعد العربي وتجعله فخـوراً بآثـاره وتراثه ومن خدمه. واسـتقام لي شـعر ابن قاضـي مِيلة من هذه المصـادر ورحت أُرتب هذا الشـعر وأنسـقه حتى وصل إلى ما وصـل إليه منهجاً وصنعة وجمعاً. والله الموفق.

وكانت خطوات المحقق وآلياته في هذه الصـنعة لشـعر ابن قاضي مِيلة تقوم على الاتي:

١- جمع شـعر ابن قاضـي مِيلة من المظان التي ترجمت له وأوردت أشعاره. وكانت هذه المظان متنوعة من: كتب الأدب، وكتب التراجم، وكتب البلاغة، وكتب الشروح، وكتب المختارات الأدبية.

٢- أعطيتُ كلَّ نص شـعري رقماً مسـتقلاً، وكذلك رقّمتُ الأبيات الشـعرية داخل كل نص لتسهيل عملية الشرح والتخريج والاختلاف في الروايات بين المظان المختلفة التي أوردت هذا النص وأبياته.

٣- أثبـتُّ البحر الشـعري لكلِّ نص من النصـوص الشـعرية التـي جمعتها لابن قاضـي مِيلة، سـواءٌ أكانت هذه النصوص صحيحة النسبة إليه أم متدافعة النسبة، يعتريها الشك بينه وبين الشعراء الآخرين.

٤- عرَّفتُ ببعض الشخصيات والألفاظ التي تحتاج إلى التعريف والتوضيح. وهناك أسماء لشخصيات ومدن لا تحتاج إلى شرح وتعليق، فهي معروفة، تجافيتُ عنها لعدم إثقال الهوامش وإطالتها بما لا فائدة منه.

٥- صدّرتُ الشعر المجموع بدراسة بسيطة عن حياة الشاعر ابن قاضي ميلة وشعره من النواحي الموضوعية والفنية، علماً أنني لم أعثر له على نثر أو توشيح.

٦- خصصتُ حقلاً للشعر متدافع النسبة بينه وبين الشعراء الآخرين.

شعر ابن قاضي ميلة

(جمع وصنعة ودراسة وتحقيق)

١- الشعر ثابت النسبة لابن قاضي ميلة:

(قافية الهمزة)

(١)

قال في التهنئة بدار جديدة لصديق له، وكان على صاحب المنزل قباء جديدة من ديباجٍ فيه صور طواويس، وقد أمر بذلك ليصفها وهو في صقلية: (المتقارب)

١- ولله يومكما إذ أتاكَ ... مبتهجاً بتمام البناءِ
٢- فأنفذ في حضن تحريره ... طواويسَ موشية في قباءِ
٣- فما جنّك الليلُ حتى بعثتُ ... بديعاً بكلّ بديع المكاءِ
٤- بأحسنِ مُتَخذٍ في البيوتِ ... وأطرف مكتسبٍ في القباءِ
٥- تقابلتما لاختلاف الصفاتِ ... ولولاهما لاختلاف الهواءِ
٦- ويعلي الذنابي مدلاً بها ... على رأسه كانتصاب اللواءِ
٧- فتلحظ مرأى يروقُ العيو ... نَ ويقضي لواصفه بالغناءِ
٨- هدايا أقمتم لإيصالها ... ظباءً تجرُّ ذيولَ البهاءِ
٩- وما عاينَ الناسُ من قبل ذا ... طواويسَ فوق أكفِّ الظباءِ
١٠- وعاين رجليه في معزلٍ ... من الحسن حلَّ عقود البكاءِ
١١- فيهدمُ جلوته بعدما ... أقام بها محكمات البناءِ

١٢- ومن سامَ بالنفس عين التمامِ نازعه النقصُ حظَّ النماءِ
١٣- فيا قمريْ سؤود قابلا وجوه السنا بوجوه السناءِ
١٤- إذا الدهرُ رفَع قدريكما فقد سُربل الدهرُ ثوبَ العلاءِ

(١) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص ٣٢٣- ٣٢٤.

(قافية الباء)

(٢)

وقال: (الطويل)

١- يخطون بالخطيِّ في حومةِ الوغى سطور المنايا في نحورِ المقانبِ
٢- كتاباً بأطراف العوالي ونقشه دمُ القلبِ مشلولاً بنصحِ الترائبِ

(٢) التخريج: **أنموذج الزمان من شعراء القيروان**: ص٢١٣؛ و**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: ج١٧ ق١ ص١٩٩ بتحقيق د. خريسات وآخرين، وج١٧ص٦١٨ بتحقيق: كامل سلمان الجبوري.

١- المقانب: جمع مقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة.

(٣)

وقال (الطويل)

١- مُحيّا ترى الأترابُ أشخاصها به جرى فيه رقراقُ النضارةِ مذهبا
٢- إذا زاره ذو لوعةٍ لاح شخصه إلى الحولِ في إفرنده متنصّبا
٣- فأعجب بوجهٍ حسنه من وشاتهِ ينمُّ على من زاره مُتنقبا
٤- بدت صور العشاق في ماءِ خدهِ فأغنتْ رقيبَ الحي أن يترقَّبا

(٣) التخريـج: **الوافي بالوفيات**: ج١٧ص٢٧٨، **الغيث المُسـجّم في شـرح لامية العجم**: ج٢ ص٤٤٤.

٢- الفرند: والإفرند: جوهر السيف ووشيه، والجمع: إفرندات.

(قافية الحاء)

(٤)

وقال ابن قاضي مِيلة: (السريع)

١- **وكيـــفَ لا تدركـــه نشـوةٌ والـلحظ راحٌ وجنـى الـريـقِ راحْ؟**
٢- **لـو لم تـكـن ريـقـتـه خـمـرةً لما تثنَّى عِطفُـــهُ وهـو صـــاحْ**

(٤) التخريج: **زهر الأكم في الأمثال والحكم**: ج٢ ص ١٨٢.

(قافية الدال)

(٥)

وقال يرثي غريقاً في البحر بشعر أوله: (الطويل)

١- **فتى حملتـه هِمّةٌ نحـو رحلةٍ بمهنـوّةٍ مـن غيـر عـارٍ بـهـا يـدا**
٢- **إذا توّجـت تيجانـها ثـمّ قوّمت بأرجلهـــا مـن صدرهـــا مـا تـأوّدا**
٣- **تولّت به عنـي وخلفـتُ بعدَهُ حزينـاً أُراعـي النجم حـرَّان مفردا**
٤- **وقد كنت أستسقي له القطر دائماً وأسـتـودع الـريـحَ الـسـلام المـردَّدا**
٥- **فكان الذي استودعتُ أولَ خائنٍ به والذي استسقيتُ من أعظم العدا**
٦- **فتىً فاض بين الماء والريح روحهُ ومـا زارهُ أهـلٌ ولا زارَ مـلـحـدا**

(٥) التخريج: **التعريف بالقاضي عياض**: ص٧٢ وردت الأبيات كاملة.

وفي **أنموذج الزمان من شعراء القيروان**: ص٢١٥ وردت الأبيات (٤ و٥ و٦).

وفي **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: ج١٧ ق١ ص٢٠٠ بتحقيق: د.خريسات وآخرين؛ ج١٧ ص١٦٩ بتحقيق: كامل سلمان الجبوري وردت الأبيات (٤ و٥ و٦) أيضاً.

وفي **السحر والشعر**: ص٨٦ ورد البيتان (٤ و٥).

اختلاف الروايات:

٤- في **أنموذج الزمان**، و**المسالك**، و**السحر والشعر**: وما زلت أستسقي له القطر دائباً...

٥- في **أنموذج الزمان**، و**المسالك**: فكان الذي استسقيت أول خاتلٍ له ....

في **السحر والشعر**: فكان الذي استسقيت أول خاذلٍ له....

(قافية الراء)

(٦)

وأنشد: (المتقارب)

١- لدنياك نور ولكنه ... ظلامٌ يحارُ به المبصرُ
٢- فإن عشتَ فيها على أنها ... كما قيل قنطرةٌ تُعبرُ
٣- فلا تعمرنَّ بها منزلاً ... فإنَ الخرابَ لما تعمرُ
٤- ولا تذخرنَّ خلاف التقى ... فيفنى ويبقى الذي تذخرُ
٥- وظنَّ أناسٌ بأن قد سموْا ... فقالوا علوْنا ولم يشعروا
٦- كذا البحر يطفو عليه القذى ... ويرسبُ في قعرهِ الجوهرُ

(٦) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص٣٢٢ - ٣٢٣.

في **لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة**: ص١٨٧ البيتان (٥ و٦).

في **شرح مقامات الحريري** للشريشي: ج٣ ص١٠١ الأبيات (١ و٤).

(٧)

وقوله في عود الغناء المطرب منذ تمايله في الروضة الغنَّاء (البسيط)

١- **جاءت بعود يناغيها ويسعدُها فانظر بدائعَ ما خُصَّتْ به الشجرُ**

٢- **غنّتْ على عودهِ الأطيارُ مفصحةً غضاً فلمّا ذوى غنّى به البشرُ**

٣- **فلا يزالُ عليهِ أو بهِ طربٌ يهيجُهُ الأعجمانِ: الطيرُ والوترُ**

(٧) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص٢٤٧ ص٣٢٢.

لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة: ص١٨٧.

شرح مقامات الحريري للشريشي: ج٣ ص٢٠٥.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ج٥ ص٣٤٨.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٦تحقيق: د. خريسات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٦ تحقيق: كامل سلمان الجبوري.

رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة: ج٢ ص٦٦٠- ٦٦١.

أنوار التحلي على ما تضمنته قصيدة الحلي: ج١ ص٤٠٨.

اختلاف الروايات:

١- في **الذخيرة** (ص٣٢٢) و**لطائف الذخيرة**، و**المسالك**، و**رفع الحجب**:

جاءت بعودٍ تناغيه فيتبعها . . . . . .

في **أنوار التحلي**:

جـــاءت بعـــود يناغيها فيســعدُها فانظر بدائعَ ما تأتي به الشجرُ

٢- في أنوار التحلي:

غنّتْ على قرعهِ الأطيارُ ساجدةً لدناً فلمّا ذوى غنّى به البشرُ

٣- في أنوار التحلي:

فما يـــزالُ عليه أو به طربٌ . . . . . .

(٨)

ولما ولي ابن البواب وزارة المعز بن باديس سأله أبو عبد الله أمراً كلفه، فمطَلَه فيه حتى صرفه، فكتب إليه (الطويل)

١- أقولُ لهُ إذ طيّشتْهُ رياسةٌ أتتْ غفلةً مهلاً فقد غلط الدهرُ

٢- ترّفق يراجعْ فيك دهرُك عقلَهُ فما سُدْتَ إلاّ والزمانُ به سكرُ

٣- فما برحتْ أيامهُ أن تصرَّمتْ وما عندنا شكرٌ ولا عنده عذرُ

(٨) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص٣٢١- ٣٢٢.

لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة: ص١٨٧ البيتان (١ و٢).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ص١٩٦- ١٩٧ تحقيق د.خريسات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٦ تحقيق: كامل الجبوري.

(٩)

ومن أبدع ما لأبي عبد الله وأغربه وأحلى الكلام وأوطئه: قوله في كلمة يعني السيف: (الكامل)

١- حيثُ التقى أسدُ العرينِ وشادنٌ تحت اللحافِ وصارمٌ وسوارُ

٢- قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ولقد عهدتك بالدخيلِ تغارُ

٣- أأمنتَ نشر حديثنا فأجبتها هذا الذي تُطوى به الأسرارُ

(٩) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص٣٢٧.

لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة: ص١٨٧ البيتان (٢ و٣).

شرح مقامات الحريري للشريشي: ج٤ ص٣١.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٧ تحقيق د. خريسات.

مسالك الأبصار في مسالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٧ تحقيق: كامل الجبوري.

اختلاف الروايات:

في **شرح المقامات:**

حيث التقى أسد العرين وظبيةٌ . . . . . .

في **شرح المقامات:**

. . . . . ولقد عهدتك للدخيل تغارُ

(١٠)

وقال أيضاً: (الوافر)

١- وتعجبني الغصونُ إذا تثنَّتْ ولا سيما وفيهنّ الثمارُ

٢- إذا اهتزَّت نهودٌ في قدودٍ فقلْ للحلمِ قد ذهبَ الوقارُ

(١٠) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص٣٢٧.

لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة: ص١٨٧.

رايات المبرزين وغايات المميزين: ص٢٧٤. وورد فيه البيت الأول مكان البيت الثاني، والبيت الثاني مكان البيت الأول.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٧ تحقيق د. خريسات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٧تحقيق: كامل الجبوري.

(١١)

وقوله: (الكامل)

١- طَبٌّ بأدواء الجهاد إذا ... صدم العجاجُ قوادم النسرِ
٢- وإذا احتبى في شملةٍ ضربتْ ... بيضُ النوال جماجم الفقرِ
٣- يندى وأيدي المزن جامدةٌ ... ويلينُ عند قساوةِ الدهرِ

(١١) التخريج: **أنموذج الزمان من شعراء القيروان**: ص٢١٤.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٩- ٢٠٠، تحقيق د. خريسات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٨، تحقيق: كامل سلمان الجبوري.

(١٢)

ومن رقيق شعره قوله: (الرمل)

١- قالت الحسناءُ لما أن رأتْ ... أدمعي ترفضُ في ما ابتدرا
٢- ليس هذا الدمع ما خُبّرته ... أنا من يهدي إليك الخبرا

٣- رقّ في خديَ من ماء الصبا رونــقٌ يعشي سناه البصرا

٤- تأخذ الألحاظ منه ريها فإذا جاز التناهي قصرا

(١٢) التخريج: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق٤ ج٧ ص٣٢٤.

المطرب من أشعار أهل المغرب: ص٤٨. وفيها اختلاف كبير في الرواية والألفاظ، حتى إن الوزن فيه من المديد، ولا يستقيم عروضاً، والصحيح ما أثبتناه.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ق١ص١٩٧ تحقيق: د. خريسات الأبيات (١ و٣ و٤).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٧ تحقيق: كامل سلمان الجبوري الأبيات (١ و٣ و٤).

اختلاف الروايات:

١- في **المطرب**:

قلت للحسناءِ لما أبصرت دمع عيني قد جرى فيما جرى

٢- في **المطرب**:

لا تظني الدمع ما عاينته .....

٣- في **المطرب**:

جمال في خديك من ماء الصبا رونــقٌ يسبي سناه البشرا

- في **المسالك** (خريسات):

دقّ في خدي من ماء الصبا . . . . . .

٤- في **المطرب**:

تـأخـذ الأجـفـان مـنـه ريّـهـا فـإذا جـاز الـتـنـاهـي قـطـرا

- في المسالك:

. . . . . فـإذا جـاز الـتـنـاهـي قـطـرا

(١٣)

وله في حمامةٍ فوق أيكة تصدح في فحمة الليل والبرق يقدح: (الكامل)

١- ومُـرّنـة قـدحـت زنـاد صبابتي والـبـرقُ يـقـدحُ في الـظـلام شـرارهُ
٢- ورقـاءُ تـأرقُ مقلتي لبكائها لـيـلاً إذا مـا هـوّمـتْ سُـمَّـارُهُ
٣- إيـهٍ بعيشك ياحمامةُ خبرِّي كيف الـكـثـيبُ ورنـده وعَـرارُهُ
٤- أترنَّحت بجوانحي أثلاتُهُ أم أينعت بـمـدامعي أزهـارُهُ؟!

(١٣) التخريج: **المطرب من أشعار أهل المغرب**: ص٤٩.

(قافية الفاء)

(١٤)

وقـال يمدح ثقـة الدولة جعفر بن تأييـد الدولة الأكحـل (ت ٤٢٧هـ)[١٩] في عيد النحر، وهي قصيدة بديعة لا توجد بكاملها في أيدي الناس، فأحببتُ إثباتها لحسنها وغرابتها (الطويل)

١- يذيل الهوى دمعي وقلبي المعنّفُ وتجني جفوني الوجدَ وهو المكلّفُ
٢- وإني ليدعوني إلى ما شنفته وفارقت مغناه الأغنُّ المشنّفُ
٣- وأحور ساجي الطرف أما وشاحه فصفرٌ وأما وقفه فموقّفُ

٤- يطيب أجاج الماءِ من نحو أرضه ... يحيى ويندي ريحه وهو حرجفُ
٥- وأيأسني من وصله أن دونه ... متالف تسري الريحُ فيها فتتلفُ
٦- وغيران يجفو النوم كي لا يرى لنا ... إذا نام شملاً في الكرى يتألفُ
٧- يظلُ على ما كان من قرب دارنا ... وغفلته عما مضى يتأسفُ
٨- وجون بمزن الرعد يستنُّ ودْقهُ ... يرى برقه كالحية الصل تطرفُ
٩- كأني إذا ما لاح والرعدُ معولٌ ... وجفنُ السحاب الجون بالماءِ يذرفُ
١٠- سليمٌ وصوت الرعد راقٍ وودْقه ... كنفث الرُقى من سوءِ ما أتكلفُ
١١- ذكرت به ريَّا وما كنت ناسيا ... فأذكر لكن لوعةٌ تتضعَّفُ
١٢- ولما التقينا محرمين وسيرنا ... بلبّيكَ ربّاً والركائبُ تعسفُ
١٣- نظرتُ إليها والمطيُّ كأنمَا ... غواربها منها معاطسُ رُعَّفُ
١٤- فقالت أما منكنّ من يعرف الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوفُ
١٥- أراهُ إذا سرنا يسيرُ حذاءنا ... ونوقف أخفاف المطيِّ فيوقفُ
١٦- فقلتُ لتربيها أبلغاها بأنني ... بها مستهامٌ قالتا: نتلطفُ
١٧- وقولا لها يا أمَّ عمروٍ أليس ذا ... منىً والمُنى في خَيْفهِ ليس يخلفُ
١٨- تفاءلتُ في أن تبذلي طارف الوفا ... بأن عنَّ لي منك البنانُ المطرّفُ
١٩- وفي عرفاتٍ ما يخبرُ أنّني ... بعارفةٍ من عطف قلبك أسعفُ
٢٠- وأمّا دماء الهدْي فهي هُدى لنا ... يدومُ ورأي في الهوى يتألَّفُ
٢١- وتقبيل ركن البيت إقبال دولة ... لنا وزمانٌ بالمودَّة يعطفُ
٢٢- فأوصلتا ما قلتهُ فتبسمتْ ... وقالت أحاديثُ العيافةِ زخرفُ
٢٣- بعيشي ألم أخبركما أنّه فتىً ... على لفظه بردُ الكلام المفَوَّفُ
٢٤- فلا تأمنا ما اسطعتما كيدَ نطقه ... وقولا ستدري أينا اليوم أعْيفُ
٢٥- إذا كنت ترجو في منى الفوزَ بالمنى ... ففي الخَيْفِ من إعراضنا تتخوفُ

٢٦- وقد أنذر الإحرام أن وصالنا ... حرامٌ وأنَّا عن مزارك نصدفُ

٢٧- وهذا وقدني بالحصى لك مخبرٌ ... بأن النوى بي عن ديارك تقذفُ

٢٨- وحاذِر نفارى ليلة النفر إنَّهُ ... سريعٌ فقل مَن بالعيافةِ أعرفُ

٢٩- فلم أر مثليْنا خليلَيْ مودةٍ ... لكلٍّ لسانٌ ذو غرارين مرهفُ

٣٠- أما إنّهُ لولا أغَنُّ مهفهف ... وأشنف برَّاق وأحور أوطفُ

٣١- لراجعَ مشتاقٌ ونام مسمَّد ... وأيقن مرتابٌ وأقصر مدنفُ

٣٢- وعاذلةٍ في بذل ما ملكتْ يدي ... لراجٍ رجائي دون صحبي تعنِّفُ

٣٣- تقول: إذا أفنيت مالك كلّه ... وأحوجتَ من يعطيكه؟ قلتُ: يوسفُ

٣٤- أغرُّ قضاعيٌّ يكادُ نواله ... لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحفُ

٣٥- إذا نحن أخلفنا مخايل ديمةٍ ... وجدنا حَيا معروفه ليس يخلفُ

٣٦- سعى وسعى الأملاك في طلب العُلا ... ففاز وأكدَوْا إذ أخفَّ وأقطفوا

٣٧-ويقظان شابَ البطش باللين والتقى ... بكفَّيْه ما يرجى وما يتخوفُ

٣٨-حسامٌ على من ناصَبَ الدين مُصلَت ... وستر على من راقب الله مغدفُ

٣٩- يسايره جيشان: رأيٌ وفيلقٌ ... ويصحبه سيفان: عزمٌ ومرهفُ

٤٠- مطلٌّ على من شاءَه فكأنما ... على حكمه صرفُ الرَّدى يتصرفُ

٤١- يرى رأيه ما لا ترى عينُ غيره ... ويفري به ما ليس يفري المثقَّفُ

٤٢-رعى اللهُ من ترعى حمى الدين عينُه ... ويحمي حمى الإسلام والليلُ أغصفُ

٤٣- ومن وعدُه في مسرح الحمد مطلقٌ ... وإيعاده في ذمة الحلم موقفُ

٤٤- ومن يضرب الأعداءَ هبراً فينثني ... صناديدهم والبيضُ بالهام تقذفُ

٤٥- رماهم بمجرٍ ضعضع الأرضَ رزّهُ ... كأنّ الروابي منه بالنَّبْل تدلفُ

٤٦- كأنّ الردينيات في رونقِ الضحى ... أراقمُ في طامٍ من الآل تزحفُ

٤٧- يعودُ الدجى من بيضه وهو أبيضٌ ... ويبدو الضحى من نقعه وهو أكلفُ

٤٨- ويحجبُ نور الشمس بالنقع عنهم ... ففعل الظُّبا في هامهم لا يكيّفُ

٤٩- لهم كلَّ عام منك جاؤوك فيلقٌ يُسائل عنهم بالعوالي فيلحفُ

٥٠- إذا ما طَوَوْا كشحاً على قرح عامهم وبلَّوْا من الآلام أنشأت تقرفُ

٥١- فكم من أغَمٍّ الوجه غاوٍ تركتَه وهاديه من عُثنون لحييه أكثفُ

٥٢-هوى المقضب الماضي بمهواه فانثنى صريعاً تراه حبتراً وهو أسقفُ

٥٣- لعمري لقد عاديت في الله طالباً رضاه وقد أبليت ما الله يعرفُ

٥٤- أطالبتهم في الأهل حتى تركتهم فُرادى وفي الأديان حتى تحنَّفوا

٥٥- فيا ثقة الملك الذي المُلك سهمُه يُراش لأكباد الأعادي ويرصفُ

٥٦- هنيئاً لك العيدُ الذي منك حُسنُه يروق ومن أوصافك الغرِّ يوصفُ

٥٧- بدا مَعْلَم الأرجاء يزهى كأنما على عطفه وشي العراق المشفَّفُ

٥٨- أتى بعد حوْل زائراً عن تشوُّقٍ وقد كان ذا طرف للُقْياك يطرفُ

٥٩- فطوَّقتَه عزًّا وشنَّفتَه به فلاحَ لنا وهو المحلَّى المشنَّفُ

٦٠- وقابله بالسعد نجلُك جعفرٌ فيا لك من عيد بملكين تتحفُ

٦١- فلازلت تُستَجدى فتُولي وتُرتَجى فتَكفي وتُستدعَي لخطبٍ فتكشفُ

(١٤) التخريج: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: ج٦ ص١٥٩- ١٦٢ وردت كاملة.

أنموذج الزمان من شعراء القيروان: ص٢١٠- ٢١٣ الأبيات (١ - ٣٣).

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٤ ج٧ ص٣٢٤- ٣٢٥ الأبيات (١٢- ٢٨).

شرح مقامات الحريري للشريشي: ج٤ ص ٢٦١ الأبيات (١٢ و١٦ و١٨ و٢٢ و٢٥-٢٨)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٨- ١٩٩، تحقيق: د.خريسات الأبيات (١٢- ٣٣).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١٦٧- ١٦٨، تحقيق: كامل سلمان الجبوري الأبيات (١٢- ٣٣).

رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة: ج٣ ص ١٠٩٣- ١٠٩٥ الأبيات (١٢- ٢٨).

الوافي بالوفيات: ج١٧ ص٢٧٧- ٢٧٨الأبيات (١-٣١).

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ج٢ صـ١٢٤- ١٢٥ الأبيات (٨ و٩ و١٠) ج٢ ص٤٢٦ ، البيت الأول فقط.

أنوار الربيع في أنواع البديع: ج٢ صـ٣٠٨ - ٣٠٩ الأبيات (١٢- ٢٩)، وفي الروايات اختلافات يسيرة رأيت عدم ذكرها؛ لأنها لا تؤثر في دلالة البيت ومعناه، كما أنها قد تربك القارئ وتثقل الهوامش بما لا فائدة منه.

(قافية القاف)

(١٥)

وقال يصف فيها مركباً للروم أوقع به المسلمون وذكر العلج: (البسيط)

١- **إذا طفا أبصر الصمصامَ يرقبهُ أو غاص في الماءِ من خوفِ الردى شرقا**

٢- **وأي عيشٍ لموقوفٍ على تلفٍ يراقبُ الميتتين السيفَ والغرقا**

(١٥) التخريج: **المختار من شعر شعراء الأندلس**: ص١٣٧.

(قافية الكاف)

(١٦)

وله في حمامةٍ تصدح: (الكامل)

١- **ورقاءُ ضافية الجناحِ تسترّت عنا بغصنَيْ بانةٍ وأراكِ**

٢- غنّت فأذكرتِ المشوقَ ببثّها وتمايلتْ فعلَ الصحيحِ الشاكي
٣- وعجبتُ من ضِدَّين في أوصافها خلع الخليع ولبسة النُّسَّاكِ

(١٦) التخريج: **المطرب من أشعار أهل المغرب**: ص٤٩.

٣- خلع الرجل خلاعة وهو خليع: إذا خلعه قومه لبعده عن الصواب وانهماكه فيما يُقبَّح.

(١٧)

وله في المعنى السابق: (الكامل)

١- ومُرنّةٍ والدّجنُ ينسجُ فوقها بُردين من نَوءٍ وكلٍّ باكِ
٢- مالت على طيّ الجناح وربّما جعلت أريكتها قضيبَ أراكِ

(١٧) التخريج: **المطرب من أشعار أهل المغرب**: ٤٩.

(قافية اللام)

(١٨)

وقال ابن قاضي ميلة: (الكامل)

١- ومدامةٍ عُني الرضابُ بمزجها فأطابها وأدارها التقبيلُ
٢- ذهبيةٍ ذهبَ الزمانُ بجسمها قِدْماً فليس لوصفها تحصيلُ
٣- بتنا ونحن على الفرات نديرها وهناً فأشرقَ من سناها النيلُ
٤- فكأنما شمسٌ وكفٌّ مديرها فينا ضحى وفمُ النديم أصيلُ

(١٨) التخريج: **أنموذج الزمان من شعراء القيروان**: ص٢١٤.

التذكرة الحمدونية: ج٨ ص٣٦٣- ٣٦٤.

التذكرة الفخرية: ص٢١٢ الأبيات (١، ٢، ٤).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص٢٠٠، تحقيق: د. خريسات البيتان (١ و٤).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص ١٦٩، تحقيق: كامل سلمان الجبوري البيتان(١ و٤).

الوافي بالوفيات: ج١٧ ص٢٧٨.

(١٩)

وقوله: (البسيط)

إذا سعى المحلُ في أرضٍ بعثت له ... جيشاً من الحضبِ مشكورَ الأفاعيلِ
يغدو الندى وهو من فرسانِ حلبتهِ ... بسيفِ وَفرٍ على الإملاقِ مسلولِ

(١٩) التخريج: **أنموذج الزمان من شعراء القيروان**: ص٢١٤.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص٢٠٠ تحقيق: د. خريسات

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ صـ١٦٨- ١٦٩ تحقيق: كامل سلمان الجبوري. وفيه قافية البيت الثاني بالضم (مسلولُ)؟!

١- الحضب: ضربٌ من الحيّات.

(قافية الميم)

(٢٠)

وقال ابن قاضي ميلة يذكر كلب البحر، وهو عند المغاربة القرش، وكان التقف إنساناً فتتبعه صاحب الولاية حتى صِيد، ووُجد بعض الأشلاء للرجل في جوفه: (المتقارب)

١- وأشغى بكفّيه مثل المدى ... طويل القرا مدمج الأعظم
٢- تصرُّفه في ضمان المياه ... ومهجته في يد الخضرمِ

٣- يخاف الهواء ويخشى الضياء وإن كان أجرأ من ضيغمِ
٤- له داخل اليمِّ بطشُ الأسودِ وتصحبه مشية الأرقمِ
٥- ولما ارتقت نفسه للأذى وبات مع البغي في مجثمِ
٦- وعزّته منعته بالبحار ومثواه في زاخر مظلمِ
٧- دعاه إلى حتفه حَيْنُه فأقعص مرءاً من العُوَّمِ
٨- فألقاه سعدُك في راحتيك وقيّده سفكه للدمِ
٩- ونزّهك الله عن أن تضيع بأرضك نفس امرئ مسلمِ

(٢٠) التخريج: **التذكرة الحمدونية**: ج٥ ص٢٩٤ وردت الأبيات كاملة إلاّ البيت الرابع، فزيادة من **أنموذج الزمان**، و**مسالك الأبصار**، واجتهدنا في وضعه هنا للسياق.

أنموذج الزمان من شعراء القيروان: ص٢١٣ الأبيات (١-٤).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٩تحقيق: د.خريسات، الأبيات (١-٤)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٨ تحقيق: كامل سلمان الجبوري الابيات (١-٤).

٢- الشعر المنسوب إلى ابن قاضي ميلة ولغيره من الشعراء.

(قافية الباء)

(١)

وأنشد: (الكامل)

١- أشقى لجَدّك أن تكون أديباً أو أن يرى فيك الورى تهذيبا
٢- إن كنتَ مستوياً ففعلُكَ كُلُّهُ عِوجٌ وإن أخطأتَ كنتَ مصيبا

٣- **كالنقش ليس يصحُّ معنى ختمهِ حتى يكون بناؤه مقلوبا**

(١) التخريج: هي لابن قاضي مِيلة في:

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٤ ج٧ ص٣٢٢.

لطائف الذخيرة وطوائف الجزيرة: ص١٨٧ البيتان (٢، ٣).

شرح مقامات الحريري للشريشي: ج٥ ص١٢٧.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ق١ ص١٩٧ تحقيق: خريسات البيتان (٢ و٣).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج١٧ ص١٦٧ تحقيق: كامل سلمان الجبوري البيتان(٢ و٣).

الغيث المسجَّم في شرح لامية العجم: ج٢ ص١٢٩.

وهي لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) **ديوانه**: صـ٣٧. وتقديمها (وقال يشكو حرفة الأدب) والبيت الأول فيه روايته:

أشقى لعقلك أن تكون أديباً .....

والبيت الثاني فيه روايته:

ما دمتَ مستوياً ففعلُك كلُّهُ .....

(قافية الحاء)

(٢)

وقول ابن قاضي مِيلة: (الوافر)

١- **لقد عرضَ الحمامُ لنا بلحنٍ إذا أصغى له الركب تلاحى**

٢- شجى قلب الخَلِيِّ فقال: غنّى وبــرحّ بالشجيِّ فقال: ناحا

(٣) التخريج: هي لابن قاضي ميلة في:

شرح مقامات الحريري للشريشي: ج٤ ص١٦٧

رفع الحجب المستورة: ج١ ص٢٧٥.

الغيث المسجم في شرح لامية العجم: ج٢ ص٣٤٢.

السحر والشعر: ص١٧٢.

وهي لأبي نصر أحمد بن يوسف المنازيّ (ت٤٣٧هـ)[٢٠] في **ثمرات الأوراق**: ص٤٣، وفيه بعد البيتين الماضيين:

١- وكم للشوق في أحشاء صبٍّ إذا اندملت أجدَّ لها جراحا

٢- ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى وسكران الفؤاد وإن تصاحى

٣- كذاك بنو الهوى سكرى صُحاةٌ كأحداق المها مرضى صحاحا

(قافية الميم)

(٣)

ولابن قاضي ميلة وتنسب لأبي الفتح المنازي: (الوافر)

١- وقانا وقْدة الرمضاء روضٌ وقاهُ مضاعف الظلّ العميم

٢- قصدنا نحوهُ فحَنَا علينا حُنُوَّ الوالدات على اليتيم

٣- يُراعي الشمسَ أنّى قابلته فيحجُبُها ويأذنُ للنسيمَ

٤- وأسقانا على ظمأٍ زلالاً ألذُّ من الشرابِ مع الكريم

٥- تروعُ حصاهُ حاليةَ الغواني لتلمسَ جانبَ العقدِ النظيمِ

(٣) التخريج: هي لهما في **السحر والشعر**: ص١٤٩.

وهي للمنازي في: **وفيات الأعيان**: ج١ ص١٤٣.

المرقصات والمطربات: ٢٢٥.

معاهد التنصيص: ج١ ص٢٠٤.

وتنسب أيضاً إلى حمدة بنت زياد المؤدب (القرن السادس الهجري) الشاعرة الأندلسية المشهورة. والأبيات لها في:

التذكرة الفخرية: ص٢٦٤، و**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: ج٦ ص٦٣، و**الشعر النسوي في الأندلس**: ص١١٤، و**شعر المرأة الأندلسية من الفتح حتى نهاية عصر الموحدين**: ص١٠٦.

الهوامش:

(*) كلية التربية الأساسية في جامعة الأنبار / العراق

(١) ينظر: **أنموذج الزمان من شعراء القيروان**: ص ٢٠٩.

(٢) ينظر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: ج٦ ص ١٥٩.

(٣) ينظر: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: ق ٤ ج٧ ص٣٢١؛ **المطرب من أشعار أهل المغرب**: ص ٤٨؛ **رايات المبرزين وغايات المميزين**: ص٢٧٣؛ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: ج ١٧ ق١ ص١٩٦، تحقيق: خريسات؛ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: ج ١٧ ص ١٦٦، تحقيق: كامل سلمان الجبوري؛ **رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة**: ج١ ص١٧٥؛ **الوافي بالوفيات**: ج١٧ ص٢٧٦.

(٤) ينظر: **معجم البلدان**: ج٥ ص٢٤٤؛ **الروض المعطار في خبر الأقطار**: ص٥٦٨.

(٥) ينظر: النص الشعري: ١٤وباقي نصوص المديح: نص ٩، نص ١٩.

(٦) ينظر: النصوص الشعرية ذوات الأرقام: ١، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٠.

(٧) ينظر: النصوص الشعرية ذوات الأرقام: ١٠، ١٢.

(٨) ينظر: النصوص الشعرية ذوات الأرقام: ٣، ١٠، ١٢.

(٩) ينظر: النص الشعري ذو الرقم (٥).

(١٠) ينظر: النص الشعري ذو الرقم (٨).

(١١) **أنوار الربيع في أنوار البديع**: ج٣ ص ٢٧٧. وينظر: ج٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(١٢) النص الشعري (١٤) البيتان (٣٢، ٣٣).

(١٣) النص الشعري (٥) الأبيات (٤، ٥، ٦).

(١٤) النص الشعري (٩).

(١٥) النص الشعري (١٠).

(١٦) ينظر: النص الشعري (٢٠).

(١٧) النص الشعري (١٣).

(١٨) النص الشعري (١٦). وينظر: النص الشعري (١٧).

(١٩) الأمـير ثقـة الدولة جعفـر بن تأييد الدولـة أحمد الأكحل بن ثقـة الدولة أبي الفتوح يوسـف بن عبدالله بن محمد بن الحسـن.....الكلبي أبو تأييد الدولة، أحد تاسع ملوك الكلبيين على صقلية، بدأت ولايته سـنة (٤١٠هـ)، ويسـتنيب ولده جعفر كلما سـافر...وكان مقتله ونهاية حكمه وحكم ولده جعفر سنة(٤٢٧هـ).

ينظر في ترجمته: **العرب في صقلية**: ص٤٧-٤٨، **ديوان الشعر الصقلي**: ص٢٢٧، **ديوان الشعر العربي في صقلية**: صـ٥٩. وانظر هوامش هـؤلاء المؤلفين والمحققين وما فيها من مصـادر، ففيها إغناء وتفاصيل.

(٢٠) ترجمته في **وفيات الأعيان**: ج١ ص١٤، و**ثمرات الأوراق**: ص٤٣.

الأشجان وقريتاها - الحَنَا والجَبَاء (أهل القرى - الفَرَعة والمُهْد)

د. محمد بن ظافر آل عساف(*)

تقديم:

هذه خلاصة عن (أهل القرى - قاعدة العوامر) (الأشجان قديماً - ديار عامر بن ربيعة بن شَهْر الحَجْري)(١) أحببت في نشرها إضافة لبنة في بناء تاريخ بلادنا، وفيها دراسة توضح موقع الأشجان والترجيح بأن قريتيها (الحنا والجباء) اللتين ذكرهما الشاعر العباسي أبو الجياش الحجري(٢) في استغاثته(٣) هما قريتا الفرعة والمهد (أهل القرى).

ومن الطود فالرنامات خضر ... رويت فالتنومة الزهراء

فقرى الحجر جهوة الزرع والضر ... ع فأشجانها الحنا فالجباء(٤)

ومن نافلة القول إننا لم نجد للأشجان ذكراً إلا فيما سطره لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (توفي بعد ٣٥٠هج) في كتابه **صفة جزيرة العرب.** وكم لهذا العالم الجهبذ من أفضال على جغرافية وتاريخ وأنساب جزيرة العرب، وقد خص ديار سراة الحجر بن الهنو وتهامتها بمادة جيدة في هذا السِّفْر الرائع. لقد وردت لفظة (الأشجان) فيه أربع مرات؛ إحداها فيما ذكره أبو الجياش في بيته السابق، وثلاث أخرى بلفظ الهمداني أثناء استعراضه لجغرافية السراة، وهي:

١- قال ص٢٦٠: «وتنومة والأشجان ونحيان ثم الجهوة قرى لبني ربيعة بن الحجر».

٢- قال ص٢٦١: «تنومة وادٍ فيه ستون قرية، أسفله لبني يسار وأعلاه لبلحارث بن شهر، ثم الأشجان قرية كبيرة ليس في السراة[٥] قرية أكبر منها بعد الجهوة، وساكنها بنو عبد من بني عامر بن الحجر».

٣- قال ص ٢٦١: «ثم نحيان وادٍ مستقبل القبلة فيه التفاح واللوز والثمار، وصاحبه علي بن الحصين العبدي، من بني عبد بن عامر، وابن عمه الحصين ابن دحيم، وهم الحكام على نحيان والأشجان والحَرّا، ووراء ذلك الجهوة».

لقد ورثت عشيرة (أهل القرى)- تعرف محلياً بقبيلة أهل القرى- مسمى قريتي الأشجان (الحنا والجباء)، وهي إحدى ثلاث عشائر يتكون منها الفخذ الدحيمي المنسوب في دحيم بن عبد بن عامر بن ربيعة بن شهر بن ربيعة بن الأواس الحجري الأزدي[٦]، وهي (آل بهيش، آل النهي، أهل القرى)، وذلك خلافاً لما بنت عليه أكثر ما طالعته من مؤلفات أو مواقع إلكترونية استقى بعضها من بعض والتي ذكرت أن دحيماً ينقسم إلى فرعين؛ هما آل بهيش وآل النهي فقط، وأن أهل القرى جزء من آل النهي، وفي ذلك متابعة لنظام النصة[٧] الجهادية التي عمل بها سابقاً، وهي لا تقرِّب نسباً ولا تبعده، وهذا التقسيم خطأ بيِّن مصدره بعض من قيَّد في كتب حديثة، وكان مرجعه في ذلك سجلات غير موثّقة أو أشخاصاً ذكروا ذلك عن قصد أو دون قصد، وكلاهما لا يصح؛ لأن في الأول تحريفاً وفي الثاني جهلاً.

الأشجان:

يظهر من وصف الهمداني أنها كانت بلدة صغيرة لعوامر بني شهر سكنها بنو عبد منهم، ولم يتبقَّ من اسمها إلا (نَشْيان)، وهي اليوم من ديار بني سعد، بعد تحول الكلمة حسب اللهجة المحلية من (لَشْجان) إلى (لَشْيان) ثم (نَشْيان)[٨]،

ولكنهـا الآن تطلق على رافد من روافد وادي نحيان، وهو لبني مشـهور وجزء من كنانة في ديار بني سعد، إخوة بني عبد بن عامر.

لقد وردت لفظة الأشجان في المعاجم بمعانٍ مختلفة؛ قال الأزهري في **تهذيب اللغة**[٩]: «قال أبو عبيد عن أبي عمر: الشـجون: أعالي الوادي، واحدها شـجَن، وهي الشواجن واحدها شاجنة».

وقال: «والشجَن: الحَزَن، والشجَن، هوى النفس، والشجَن، الحاجة، والجمع أشجان».

وأعـالي الأودية هـي الفِرَاع وفُـرَع جمع (فرعة)، أمكنة واسـعة تُستصـلح للزراعة والسكن، وقد أشار إليها أبو الجياش في قصيدته:

فجبال السراة فالفُرَع الوسطى، حكين الجناء فالحيفاء

وفي **القاموس المحيط** للفيروز آبادي[١٠]: «الشـجَن، محركة: الهم والحزن، والغصـن المشـتبك، والشـعبة من كل شـيء.... والحاجة حيث كانت... والجمع شجون وأشجان»، وقال: «والشجْن: الطريق في الوادي أو في أعلاه والجمع شجون».

وجاء في **لسان العرب** لابن منظور[١١]: «والشاجِنَة: ضرب من الأودية يُنبت نباتاً حسـناً. وقيل: الشواجن والشجون أعالي الأودية، واحدها شجْن». قال كثيّر وقد ذكر (البُلَيْد)، وهو بأسفل نخلى من أودية الأشعر من ديار جهينة[١٢]:

وقد حال من حزم الحماتين دونهم وأعرض من وادي البليد شجون

وأضـاف ابن منظور: «وقال شَـمِر: جمع شجْن أشجان»، ونقل عن الأزهري: «وفي ديار ضبّة وادٍ يقال له الشواجن في بطنه أطواء كثيرة»، ونقل عن الجوهري: «الشجْن بالتسكين واحد شجون الأودية وهي طرقها».

فمن معانيها: الشقوق والطرائق في الغلظ من الحرة، قال صخر الغيّ:

أسال من (الغيل) أشجانه كأن ظواهره كن جوُفا[١٣]

كما ورد عند ياقوت في **معجم البلدان**: «والشجون من أودية تهامة». قال ساعدة بن جؤيَّة الهذلي:

والأثل من سَعْيا وحَلْية منزل والدوم جاء به الشجون فعُلْيب

وشِجْنة بالكسر: اسم رجل، وهو شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم[١٤].

وبالشجن (بنو الشجن) قَبِيل من الناس، فرع من رجال ألمع، وهم سكان وادي ريم[١٥].

هذا بعض ما ورد باختصار في تأصيل الكلمة. ويهمنا من ذلك ما اتفقت المعاجم عليه، وهي الصفة التي تطلق على أعالي الأودية مفردها (شِجْن)، وتجمع على شجون وأشجان كما ذكر شمر فيما نقله ابن منظور في **اللسان**. وهو ما يتفق مع موقع (أهل القرى)، فهو في مناشئ وادي نحيان وأعلى مكان منه، بالإضافة إلى وجود طرائق وشعاب حول (فرعته) كشعب المسلّم والأشرف (بلأشرف)، والحارث (بلحارث)، والمحلب، وذي اليارة (الجارة)، والهيلة، وشعب سالم، وغيرها مما يتناسب مع مدلول كلمة الأشجان[١٦].

والأشجان هي حاضرة ديار عامر بن ربيعة (العوامر)، وقاعدتهم تجاور الجهوة - حاضرة ديار الحجر بن الهنو عموماً وديار شهر بن نصر بن ربيعة (شهر ثرامين) خصوصاً - من الجنوب. قال عنها الهمداني: «الأشجان: قرية كبيرة ليس في السراة قرية أكبر منها بعد الجهوة». وقوله: (قرية) بالمفرد لا ينفي أنها تتكون من قريتين ذواتي كيان واحد؛ فالقرية التي أرادها الهمداني تعني المركز الإداري، وهو مصطلح استمر معنا إلى وقت قريب جداً، حيث كان يطلق مسمى (القرية) على بلدة النماص، بما حوته من «منازل» متعددة «قرى». أما كيان القرية بالمعنى الذي أراده أبو الجياش، فهو (المنزل) بمصطلح الأهالي

وسكان المنطقة؛ فيقال: منزل الفرعة، ومنزل المهد، وهكذا. وأصله منزل الرجل وأسـرته حيث النواة التي تتكون منها القرية بمعناها الجغرافي، لا بمعنى الإدارة أو السلطة.

فقرى الحجر جهوة الزرع والضر ع فأشجانها الحنا فالجباء

وفي حصر أبي الجياش لمكوِّني الأشجان - وهي هنا اسم عَلَم مفرد - (الحنا والجباء) دليل على أنهما قريتان فقط. ويجدر القول إنه ليس في بني عبد خاصة، التي تعتبر الأشجان في ديارهم على ما ذكره الهمداني، أو العوامر عامة، عشيرة تتكون من قريتين، وينطبق الوصـف على أرضـهما إلا (أهـل القرى). كما أن في دلالة اسـم أهل القرى ما ينبئ على أن الأشـجان قد آلت إلى هذا المسمى لاحقاً، وهو مقصود أبي الجياش في قوله: (قرى الحجر) للجهوة وقريتي الأشجان.

ومما ينفي أن تكون الأشجان في موقع الوادي المسمى الآن (نشيان) من ديار بني سـعد: أن الأشجان لبني عبد ومركز حكمهم، قال الهمداني عنها: «وساكنها بنو عبد من بني عامر بن الحجر»[١٧]. أما نشيان، وهو لبني سعد، فهو وادٍ وليس قرية كما بيَّنا، ولكنه رافد من روافد نحيان، ونسـب إلى قرية العوامر وقاعدتهم (الأشجان).

إن الهمداني، فيما يتضـح من التفصـيل الوارد في كتابه، كان خبيراً بأرض العوامـر، ولا يسـتبعد أنه أقام بها ولـو مؤقتاً أثناء اشـتغاله بالجمالة بين اليمن ومكـة، فقد فصَّـل عنها وعن أسـماء حكامهـا بما لم يورده عـن غيرها من ديار الحجر، ومع ذلك فلم يذكر بني سـعد إخوة بني عبد، ولعل شيوع لفظة الأشجان لديـار العوامر عامة - رغم أنها لبني عبد خاصـة - نـوع من إطلاق الجزء على الكل، مما سـاعد على الاحتفاظ بالاسم في أحد روافد نحيان، وهي في ذلك مثل إطلاق لفظة الجهوة على مسـاحة أوسـع من قرية بني بكر المسـماة بها لتشـمل عموم ما يعرف حالياً بالنماص.

ويستشف من قول الهمداني: «وساكنها بنو عبد» أن بني سعد لا يسكنونها ولم تكن لهم، لكن أرضهم لابد أن تكون في بقية الوادي (وادي نحيان) مجاورة لبني عبد، حيث قال الهمداني بعد ذكره للأشجان مباشرة: «ثم نحيان وادٍ مستقبل القبلة»[١٨]، مما يدل على أن ديار العوامر في حينه كانت أوسع من بقعة الأشجان الخاصة. فإذا كانت الأشجان لبني عبد، ففي نحيان بقية بني عامر بن ربيعة (كنانة وبني مشهور) الذين كانت قراهم محصورة في ذلك الوقت، ولم تكن قد توسعت إلى ما هي عليه الآن فيما هو أبعد من نحيان[١٩].

أما كيف اختفى اسم الأشجان وقريتيها (الحنا والجباء)، وحلَّ محلَّه لفظة أهل القرى، فهو المفهوم من مضمون بيت أبي الجياش السابق ذكره في تخصيص اسم الأشجان بـ (القرى)، ومع ذلك فقد بقيت اللفظة في ديار بني سعد.

بنو عبد ورئاسة بني عامر في الأشجان:

بعد أن وصف الهمداني ديار العوامر إجمالاً، وذكره لقرية الأشجان، وأنها أكبر قرى سراة الحجر بعد الجهوة، قال عن سكانها إنهم بنو عبد، وهم يعدُّون نصف بني عامر حالياً، ثم وصف واديهم نحيان. ولأن أفخاذ العوامر المعروفة الآن (دحيم، بلحصين، كنانة، بنو مشهور) لم تكن قد تكونت أو توسعت أرضها كما هي الآن، فقد كانت أسرة علي بن الحصين العبدي وابن عمه الحصين بن دحيم العبدي (وهما أصلا فخذَيْ دحيم وبلحصين) تسكن في قرية الفرعة في أعلى وادي نحيان على الأرجح حسب رواية شفهية غير مسندة، وأنهما كانا في (الديّرة)[٢٠] ودُفنا في مقبرتها المندرسة (المشارق) التي لم يبق شيء من معالمها، حيث قد طغى البنيان على أطرافها، وتكوَّنت بدلاً منها مقبرة (الرسوس) منذ أزل. وقد كان لهم قرية في رأس جبل مقاحف المجاور، ولعلها كانت موئلهم عند الكرب لم يبق منها سوى ردوم وأساسات تحتاج إلى دراسة آثارية في مساحة لا تقل عن ٥٠٠٠ متر مربع، ومقاحف جبل بارز منفرد حيكت حوله وحول بئر (سَلْمان) التي تقع أسفله بعض الأساطير.

كما كان في أعلى قرية الفرعة سوق الخميس للعوامر (وعد الخميس) فيما يعرف حالياً (حدابين الوعد)، وقد قضم أكثرها البنيان. وهذا السوق لا يُعرف متى توقف ولا أسباب ذلك، وكان في موعده الخميس رمزية لأهميته.

وزيادة في التوضيح على رئاسة بني عبد للعوامر، قول الهمداني بعد ذكر علي بن الحصين وابن عمه الحصين بن دحيم، وأنهما من بني عبد بن عامر: «وهم الحكام على نحيان والأشجان والحرا»، ولم يقل: وهما الحاكمان، بتثنية لفظة الحاكم؛ لأنه يقصد في إشارته بني عبد رؤساء ديار العوامر التي تمثل في وقتنا ربع مساحة بني شهر السراة تقريباً، وقد استمرت رئاسة بني عامر في العبديين في قريتهم الأشجان (أهل القرى) ثم تطور الأمر فيما بعد، فوجد مع الرئاسة ما عُرف (بحمّالة البيرق) أثناء الحملات الحربية، وقد اختص بذلك إخوتهم بنو سعد في زمن لاحق.

ومنعاً للالتباس، فإن في تحديد الهمداني لنسب علي بن الحصين بقوله: (العبدي) توضيحاً بأن (آل حصين) من كنانة من بني سعد من قَبيل المسمَّى، فمما يبدو أن (الحصين) كان اسماً متداولاً في تلك الفترة، وهذه التسمية عادة جرت بين الناس إلى وقت قريب.

ثم إن الهمداني بعد أن ذكر وادي نحيان أشار إلى (صاحبه)، وكلمة (الصاحب) هنا تتجاوز مفهوم التملك إلى الحكم والإدارة، فاللفظة من المصطلحات الشائعة في ذلك الوقت في عموم الخلافة العباسية، وهي الفترة التي احتواها الوصف، وذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد تأتي بمعنى واسع كالوالي في ولاية ضخمة؛ كصاحب مكة وصاحب اليمن، وقد تصغر إلى ما دون ذلك كصاحب إشبيلية أو صاحب بغداد، أو إلى أقل من ذلك بكثير، مثلما رأينا في شأن نحيان والأشجان[٢١].

وقد توهم بعضهم أن الأشجان ليست في نحيان؛ لأن الهمداني قد قرنها عند ذكره نحيان في قوله عن ديار ربيعة بن شهر بن ربيعة: «وتنومة والأشجان ثم نحيان

فالجهـوة»، أو قولـه عن بني عبد: «وهم الحكام على نحيان والأشـجان والحرّا». وهذا تخصـيص لأهمية الأشجان؛ لأن نحيان أوسع من أرض الأشجان التي دلت القرائن السابقة أنها في منطقة أهل القرى؛ حيث إنها تتكون من قريتين فقط من قرى بني عبد، وإن اسمها المحوّر إلى (نشيان) استمر في رافد من روافد نحيان. إن الهمداني لم يغفل عن بقية ديار بني عبد في (الظهارة)[٢٢] قبل أن تتوسع إلى ما هو أبعد من ذلك، وسـماها (الحرّا)[٢٣]، وقد بقي الاسم في بقعة مخصوصة مـن ديار ظهـارة آل بهيش وظهارة بلحصـين، وهو في هذا التخصـيص يبين أن الحرّا (الظهارة) ليست من الأشجان. إن الظهارة لا يتناسب مسماها ولا موقعها الكائـن على ربوة بارزة مـن الأرض، وهي في بعض أجزائها كالحرة، مع وصـف موقع الأشـجان ولا مسـماها الذي يكون في أعالي الأوديـة. وهو هنا وادي نحيان الذي تكـرر إيراده عند الهمداني ثلاث مرات مرتبطاً بالأشـجان. إن التسلسـل اللفظي عند وصف ديار ربيعة بن شهر بن ربيعة من الجنوب إلى الشمال، أو ديار بني عبد بن عامر بن ربيعة بن شهر بن ربيعة من الشمال إلى الجنوب يتناسب في كون الأشـجان في أعلى وادي نحيان، وهو الموقع الذي سكنه حكامها. وفي الرواية الشـفهية المحلية أنه في منطقـة (أهل القرى)، حيث لا ينطبق الوصـف على أي مـكان آخر من ديار بني عامر؛ سـواء في الظهارة جنوباً، أم شـمال شـرق وادي نحيان، حيث يقطن بنو سـعد وبعض من البدود الأخرى، ولو كانت الأشـجان في منطقة الظهارة (الحرّا) لكان بقاء الاسـم (نشـيان) في أحد أجزائها أو روافد أوديتها ألصـقَ وأولى، ولكن الدلائل، كما اتضح سابقاً، ترجِّح وجود الأشجان في نحيان وفي أرض بني عبد منه حيث مقر رئاسة بني عامر (أهل القرى).

الحَنَا والجَبَاء:

هما قريتا الأشـجان بتصـريح من أبي الجياش، ولا يوجد لهما ذكر في ديار

العوامر الآن، إلا أن وجود الاسمين يتوافق مع ظاهرة تكررت كثيراً أثناء استيطان القبائل في السروات، وتتمثل في هجرة الألفاظ من اليمن، حيث موطنها الأول، إلى الديار الجديدة، ومنها على سبيل المثال: سنحان، وبيحان، وساقين، وآل حشيش، والخفية، والخنقة، وسروم، وبني بارق...إلخ. ورغم البحث، إلا أنني لم أجد لهذين الاسمين أثراً صريحاً في ديار العوامر مما نستطيع أن نضيفه إلى قريتهم (الأشجان)، ولابد أنهما تبدَّلا. وهو ما يساعد على الترجيح أيضًا أنهما يعودان لقريتي الفرعة والمهد. وإن مما يؤيد ذلك أن خاصية الاسم ومدلول اللفظ فيهما مرتبط بوصف المكان[٢٤] وغير مضاف إلى نسب السكان، وهو الحال نفسه في مدلول لفظتي الحنا والجباء الذي يشير إلى وصف معين للأرض.

لقد اكتفى الهمداني بذكر الأشجان والوصف العام لديار العوامر، فأشار إلى نحيان والأشجان والحرّا، ولم يفصِّل في القرى وأسمائها، ولربما كان ذلك لعدم وجود أهمية خاصة تتطلَّب منه ذلك، وهو ما ساعد في زوال كلمتي الحنا والجباء، وبقاء كلمة الأشجان محوَّرة في طرف من أرض بني عامر بن ربيعة. لقد كانت الإشارة في المعاجم إلى (الجباء) والاشتقاقات المشابهة لها أكثر مما ورد عن (الحنا). وسنتبين ذلك فيما يأتي.

الحَنَا، (الحِنّا)، (الحِنّاء):

ربما كان للضرورة الشعرية في بيت أبي الجياش ما دعاه إلى القصر في (الحَنَا) والمد في (الجَبَاء). وفي توافق اسمها مع غيرها من المواضع وجدنا (الحِنّا) بتضعيف النون مع القصر، وبالتضعيف مع المد (الحنّاء). جاء في **القاموس المحيط**[٢٥]: «وادي الحِنّاء بين زبيد وتعز». وقال: «وحنأ المكان، كمنع: اخضر والتفَّ نبته». وفيه إشارة إلى دوام الخضرة في الموضع، كما أن فيه تأييدًا لما ذكره الهمداني من كثرة أشجار فواكه نحيان، بل تواتر ذلك عند السكان من أن شعب (الخفية) كانت أشجاره تخفي الماشي فيه إذا عبره من كثرتها[٢٦].

وممن انتسب إلى الحِنّاء كما ورد في **مشتبه النسبة** قول الحافظ عبدالغني

الحجـري: «فأما الحِنّائـي بالحاء المهملة والنـون، فإبراهيم بن علـي الحِنّائي؛ سـمعت منه..... وهارون بن مسلم صـاحب الحِنّاء»[٢٧]. ومنه ما ذكر الهمداني أن وادي (الحنّا) إلى غربي محجة عدن، قال الأكوع: «وادي الحنّا هذا في أعلى موزع معروف مشهور»[٢٨].

وذكر الجزيري أيضاً في **الدرر الفرائد المنظمة** عند حديثه عن طريق اليمن عبر تهامة: «قال العلامة ابن فضـل الله: وأما الطريق اليماني إلى مكة المعظمة، فاعلـم أن الركب يخرج من تعز، فينزل البئر، وهـي في ذيل الجبل، ويأخذ إليها في مرحلتين ويرد ماءها، ثم يرحل إلى وادي الحناء، ويأخذ إليه في ثلاث مراحل ويرد ماءه»[٢٩].

وجاء في **لسان العرب** لابن منظور[٣٠]: «حنا الشيء: عطفه»، وقال: «والمحنية من الوادي: منعرجه حيث ينعطف»، وأضـاف: «وفي الحديث: أن العدو يوم حنين كمنـوا في أحناء الوادي؛ هـي جمع حنو، وهو منعطفه مثـل محانيه»، ونقل: «وفي الحديث: إذا ركع أحدكم، فليفرش ذراعيه على فخذيه وليحنأ».

ولعـل في معنى (الحنا) ما يمكن تطبيقـه على أرض الواقع في وادي نحيان، خاصة عند انعطافه بعد منشئه في الخنقة وسحبان واللفي ونواحيها، حيث يتجه من الشمال إلى الجنوب ثم ينعطف مشرقاً قريباً من قرية المُهْد.

قال الزبيدي: «ومنحنى الوادي حيث ينخفض عن السند..... وأحناء الوادي مثـل محانيـه»[٣١]. وفي هذا القول ما يدعو إلى الربط بـين الحنا ونحيان، فقرية الفرعة في محنى نحيان، وهي عند انعطافه تماماً قادماً من الشـمال متجهاً إلى الشرق.

وفي تصـريف الكلمـة يوجد عدة مواضـع متفرقـة؛ منها: الحنـو والحنيان والمحاني. أما الحنّاء، فمن قرى جبل ثربان في تهامة.

الجباء، (جَبَأ)، (جَبَا):

في اختلاف الرسم والمعنى نجد عند الجوهري قوله عن (جبا)[٣٢]: «جبيت الخراج جباية، وجبوته جباوة ولا يهمز، وأصله الهمز»، وكذلك قال: «والأجباء: ربيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه. وفي الحديث «من أجبى فقد أربى»، وأصله الهمز»، «والجابية : الحوض الذي يجبى فيه الماء». وقال الزبيدي[٣٣]: «والجبى كالعصا: محفر البئر، يكتب بالألف والياء»، ونَقل عن الزجّاج: «مأخوذ من جبيت الشيء: إذا اصطفيته لنفسك». ولا يستبعد أن في تسمية الجباء في الأشجان اصطفاءها لحكامها، فواديها من أفضل الأودية، ومنشرها (صهدان) أوسع مناشر العوامر، مع أنها أقل العشائر العامرية عدداً.

ومن مترادفاتها ما أورده الزبيدي أن (جبا) تأتي بمعنى الهبة، وهي عامية.

قل لعبد القيس يا أكرم من ... مد كفاً بجباءٍ واحتبى[٣٤]

وعند عبدالله بن قاسم الذروي:

لا تحج البيت إلا خاضعاً ... دافعاً عُشراً لنا ثم جبا[٣٥]

وفي (جبا) أيضاً نقل الحازمي عن نصر[٣٦]: «آخره ألف والباقي نحو الأول[٣٧]: شعبة من وادي الجيّ، وهي عند الرويثة بين مكة والمدينة». وقد رسمها الزبيدي في **التاج** بالباء وبالمقصورة، وقال في مادة (جبى): «الجبى: شعبة عند الرويثة بين مكة والمدينة. قاله نصر».

أقول: وفي هذا اختلاف واضح عمَّا أورده الحازمي بأنها بالياء المضعَّفة دون باء.

وعن (جَبَأ) قال الحازمي: «بعد الجيم المفتوحة باء موحدة مفتوحة أيضاً، ثم همزة على وزن جَبَل: جبل في اليمن، نُسب إليه شعيب الجبائي، حدَّث عنه سلمة بن وهرام»[٣٨].

قال الجاسر: «جبأ مدينة أثرية وصفها الهمداني في **صفة جزيرة العرب**،

وحدد الأستاذ محمد بن علي الأكوع موقعها في فجوة جبل صَبِر من غربيه، وصَبِر من أشهر جبال اليمن تقع مدينة تعز في سفحه، وشعيب الجبائي تابعي من أقران طاووس، وممن روى عنه محمد بن إسحاق صاحب السيرة»[٣٩].

وقد وردت فيما حققه الأكوع بالألف (جبا)، وعزا ذلك إلى المؤرخ الجنَدي معلقاً: «وهو أعرف ببلده وقومه، وهو ما ينطق به الناس اليوم»[٤٠]. وكذلك فعل في شرحه بهامش كتاب **قرة العيون** لابن الديبع، حيث قال: «بالجيم والباء الموحدة: كورة المعافر وعاصمته القديمة الأثرية الذائعة الصيت، جاهلية الاختطاط، لها ذكر حسن فيما قبل الإسلام، إذ كانت مركزاً هاماً للتجارة التي تخرج من باب المندب وسواحل المخا»[٤١].

وقد تحدث عنها مؤرخون وبلدانيون كُثر لأهميتها منذ الجاهلية، قال عنها الهمداني: «وأما جبا وأعمالها، وهي كورة المعافر، فهي في فجوة بين جبل صَبِر وجبل ذَخِر، وطريقها في وادي الضباب، ومنها أودية ذخر وتباشعة، ويسكنها السكاسك»[٤٢]، قال الأكوع: «كانت عاصمة الملوك آل الكرندي إلى القرن السادس»[٤٣].

وقد ذكرت بالمد (جباء)، قال ياقوت: «قال العمراني: جَبَاء، ممدودة: جبل في اليمن. وأضاف ياقوت: والنسبة على ذا جبائي، وقد روي بالقصر والأول أكثر»[٤٤].

وقال البكري: «الجبا بالفتح مواضع مختلفة باليمن»[٤٥]، وهذه العبارة من البكري توحي بوجود أكثر من موضع يحمل الاسم نفسه. ولا يستغرب أن تكون الجبا (جبا الأشجان) محل بحثنا إحدى هذه المواضع التي أشار إليها البكري.

وقد لخص البكري في **معجم ما استعجم** ما دار حول هذه اللفظة، فقال: «الجبا بالفتح: مواضع مختلفة

فالجباء بالمد: جبل باليمن.

ويقال: جبأ بالهمز والقصر، وإليه ينسب شعيب الجبئي المحدث، والمحدِّثون يقولون الجبائي وهو خطأ. وهذا الجبل بناحية الجَنَد.

والجبا مقصور: موضع بنجد، قال كثيّر:

أشاقك برق آخر الليل واصب تضمنه فرش الجبا فالمسارب

وجبأ، مقصور أيضاً: موضع بالمعافر من اليمن.

وجبا براق، مقصور أيضاً مضاف إلى البراق جمع برقة: موضع بالجزيرة. قال الأخطل:

فأضحى رأسه بصعيد عكٍّ وسائر جسمه بجبا براق»[٤٦]

فأنت ترى هنا كثرة الاختلاف حول الرسم والنطق، والعامة تطوِّع للشكل الذي يناسب لهجتها بمد أو قصر، وهمز أو تسهيل.

يوم الجبا:

أورد ياقوت في **معجم البلدان** بيت شعر نسبه إلى تأبط شراً يرثي فيه الشنفرى، وذلك في معرض حديثه عن موقع الجبا الذي أشار إليه نصر كما ذكرنا سابقاً[٤٧]:

عليك جزاء مثل يومك بالجبا وقد رعفت منك السيوف البواتر

وفي **الطرائف الأدبية** لعبدالعزيز الميمني جاء في رثاء الشنفرى قول تأبط شراً[٤٨]:

على الشنفرى ساري الغمام فرائح غزير الكُلَى وصيب الماء باكر
عليك جزاء مثل يومك بالجبا وقد رعفت منك السيوف البواتر

وقد نسب الصحاري البيت لعمرو بن براق، حيث قال[٤٩]:

على الشنفرى صوب الغمام ورائح غزير الكُلَى مُثْعنجر الماء ماطر

عليك جـزاء مثل يومك بالجبا وقد رعفت منك السيوف البواتر

والأرجح أنه لعمرو بن براق؛ لوجود اختلاف في تاريخ وفاة تأبط شراً، حيث ورد في **ديوان الشنفرى** قصيدة له يرثي فيها تأبط شراً عندما قتلته هذيل[٥٠].

وقـد ذكر ياقوت في **معجمه** (جبا ومشـعل) من أحـواز الرويثة، مورداً قول الشنفرى:

خرجنا من الوادي الذي بين مشعلٍ وبين الجبا هيهات أنسأت سربتي

ولبُعد ديار الشنفرى عن الرويثة (تقع بين مكة والمدينة) فقد شكَّك الجاسر في استشـهاد ياقوت علـى موقع الجبا، وقال: «وما أرى الشـاهد هذا ينطبق على الموضـع المذكور؛ لأن غارات الشـنفرى في بلاد السـراة – سـراة أزد شـنوءة – في جهـات بلاد عسـير الآن بعيدة عن هذا الموضـع»[٥١]. وهـذه ملحوظة جديرة بالاحترام من العلامة الجاسـر، ومنها أرى أن لا يُسـتبعد أن تكون الجبا ويومها المشـهور الذي ذُكر هي جبا الأشـجان أو جبا العوامر، وقولي «جبا الأشـجان أو جبا العوامر» هو من باب الاسـتطراد لما عُرف في نواحي تلك الديار من إضـافة اسـم الموقع إلى غيره من القبائل أو المواضـع للتفريق بينهـا، كما في مثل قولهم: جبا المعافر، وجبا السـحول، وجبا براق وهكذا. ولا تسـعفنا المصادر عن تفصيل أوسـع لهذا اليوم، ولربما كان من الأيام العديدة التي كانت بين غامد وبني عامر (العوامر)، ومنها يوم حراق. وقد أشـار إلى ذلك زهير الغامدي فيما وصلنا من شعره الذي استشهد به نصر وياقوت في تحديد المواضع (مادة ثرام، دوقة) ومن ذلك قوله:

حـديـث أتـانـا عـن ثـرام وأهـلـهـا بني عامر وأورثتنا الأساور

ومنه:

أتيناهم من أرضنا وسمائنا وأنى أتى للحجر أهل الأخاشب

وإذا كان الموقع (الجبا) الذي ذكره كل من الشنفرى وعمرو بن براق (أو تأبط شراً) هو الموقع نفسه (الجباء) الذي ورد في قصيدة أبي الجياش - وهو إحدى قريتي الأشجان - فلا بد أن الضرورة الشعرية أجبرت أبا الجياش على المد والهمز لاتفاق ما جاء عند الشنفرى مع زميله (بدون همز) وهما متقدمان.

حنّة وجبا:

مع أن شواهد البحث حول الأشجان تستبعد أن يكون للفظتي الحنا والجبا أصل في النسب، نورد ما قاله الهمداني في كتاب **الإكليل**: إن السحول أولد «جبيراً ونعيمة وغُلاساً وحنّة وجبا بني السحول؛ بطون كلها دخلت هي وجسر الخبايز في الكلاع باليمن، وأكثرها بالشام ومصر..... وهم من نسب بني سوادة بن عمرو بن سعد بن عوف بن عدي»[٥٢] من حِمْيَر. وقد أحببت أن أضيف هذه الإشارة لاحتمال أن تكون (حنا وجباء) الأشجان مرتبطة بنسبٍ خفيَ علينا، علماً أن الأكوع أضاف: «وحنّة بفتح أوله وتشديد ثانيه لا تعرف اليوم، وجبا بالجيم الموحدة لعلها جبل معافر، وإليها ينسب شعيب الجبائي من أقران طاووس»[٥٣]، مما ينبئ بصعوبة الجزم بوجود علاقة نسب لهاتين اللفظتين. وقد أتت حنّة بالعين (عنّة) وجبا بالهمز (جبأ) للنص نفسه في كتاب **صفة جزيرة العرب**، ولم يتطرق الأكوع، وهو المحقق نفسه، للنصين بشرح عن لفظة (عنّة)[٥٤]. وهذا التردد من محققٍ واحد لنص واحد في كتابين حول (حنّة وعنّة) ينفي عنهما الأهمية. وقد أشار صاحب كتاب **البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي** إلى ما ذكره ياقوت من أن: «عُنّة - بالضم - من مخاليف اليمن وقيل: قرية باليمن»، فعلق على ذلك قائلاً: «عَنّة بفتح العين، لا بضمها، وادٍ في العُدَين من أعمال إب»[٥٥].

وقْر عيمة الجَبَهَهْ:

يتبين لنا من تأصيل لفظة (الجباء) أن لها علاقة وثيقة بمصادر المياه.

الوقر: قال ابن منظور[٥٦]: «جبى الخراج والماء في الحوض يجباه ويجبيه جمعه..... ومنه جبيت الماء في الحوض وجبوته..... والجِبا والجَبا....، ما جمعت في الحوض من الماء، والجِبا والجَبا: ما حول البئر. والجَبا: ما حول الحوض، يكتب بالألف». ونقل عن الجوهري: «الجبَا بالفتح مقصورة: نثيلة البئر، وهي ترابها الذي حولها تراه من بعيد..... وعن أبي منصور: الجبا: ما جمع بالحوض من الماء الذي يستقى من البئر..... والجمع من ذلك أجباء..... وعن أبي ليلى، قال ابن بري: الجَبا بالفتح: الحوض، والجِبا بالكسر: الماء»[٥٧].

وقال الزبيدي: «والجبء: نقير في الجبل يجتمع فيه الماء من المطر»[٥٨].

قلت: وهو ما نسميه الوقر، وهو النقرة في الصخرة الصماء، صغُر أو كبر[٥٩]. وهو ما جاء عند ابن منظور أيضاً في قوله: «والجبء: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء، عن أبي العَمَيثل الأعرابي. وفي **التهذيب**: الجبء: حفرة يستنقع فيها الماء»[٦٠].

أقول: ليس كل حفرة تكون في الصخر، أما قوله (نقرة) فهو الصواب، وهي من الألفاظ الدارجة الفصيحة؛ كقولهم: «نقر في الصفا» يريدون تثبيت الأمر أو القول. والوقر هو النقرة المصمتة في الصخر لا يهرب منها الماء ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾[٦١]. والجبّ، هو البئر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾[٦٢].

العيمة: هي الصخرة، تنطق بالياء على لهجة السكان[٦٣] وهي فصيحة. جاء في **القاموس المحيط:** «العَجْمَة: الصخرة الصلبة والجمع عَجَمات»[٦٤].

«قال أبو دُوَاد:

عـــذب كـــمـــاء المـــــزن أنـــــ ـــزله مـن العجمات بـــارد»[٦٥]

الجَبَهَـهْ: (الجباهـه) بفتـح الجيـم والباء الموحـدة والهاء الأولى وإسـكان الأخيرة، التي ليسـت تاءً مربوطة، ولا تأتي في نطقهم إلا سـاكنة. ومن هنا يتبين التقـارب بـين لفظة (الجبـاء) مع المد ولفظـة (الجَبَهَـهْ) التي يظهـر أنها من بقاياها، فلو كان يقصـد بلفظـة الجَبَهَهْ مقدَّم الرأس، لكانت بإسـكان الباء مع تاء مربوطة عند التحريك (الجبْهة)، وهي في النطق أيسر من (الجَبَهَهْ)، ولكن التواتر واضح في نقل اللفظة مبنيةً على إسكان آخرها، وهي لغة جاهلية في الأزد لعل هذه من بقاياها[٦٦].

ونستطيع أن نقول: إن الهاءين الأخيرتين من باب الزيادات التي أدخلت على لفظـة (الجَبَا)، ولذلك نظائر؛ منها ما نقله البكري عن الهمداني في حديثه عن (تَلْفم)، وهو قصـر من قصـور اليمـن. قال الهمداني: والناس يصـحِّفون فيه، فيقولـون (تلثم) بالثاء. ثم قال: كان اسـمه (تلف)، ثم زيـدت إليه (ما)، فقيل (تلـف مـا)، ثم خفف فقيـل (تلفم)، فرأته العـرب كالأعجمي، فقالـوا (تلثم) بالثاء[٦٧].

قلت: وهذا من باب تطور اللفظة وتغيرها.

و(عيمة الجَبَهَهْ) هذه صـخرة شاهقة صماء تُرى من بعيد في منشر مراعي أهل القرى المسـمى (صـهدان)، وبقربها وقر صـخري يمتلئ مـن ماء الأمطار، فتسـقى منه المواشـي، وفي أعلى هذه الصـخرة (قَضِـي)[٦٨] مستصـلح بثمالة حجريـة يحار الإنسـان كيف تم بناؤه على هذه الصـخرة المرتفعة مع الصـعوبة البالغة في جلب الحجارة إليها لعدم وجود ممرات أو طرائق في جوانب الصخرة، ولعله كان يستخدم للتحصن والحماية عند الضرورة.

وعَيْمة (عجمة) مضـافة إلى (الجَبَهَهْ) التي نطقها ثابت بإسـكان آخرها، وهذه الإضـافة قد تكون إلى (الجَبَاء) إشـارة إلى المنطقة، وفيها مد مضـاعف

يؤدي إلى أن تنطق (الجَبَاءَى)[٦٩]، وما أيسر أن تتحول مع الوقت إلى (اليَبَهَهْ = الجَبَهَهْ)، وهو تأويل مقبول من نظائره ما ذكرنا سابقاً من تحول الأشجان إلى لشيان ثم نشيان.

وهناك علاقة بين (الجَبَهَهْ) ومصادر الماء المرتبطة بلفظتي (الحنا والجباء) أيضاً، فقد أورد الأزهري عن أبي عبيد عن الكسائي قوله: «جَبَهْنا الماء جبهاً: إذا وردته وليست عليه قامة ولا أداة»[٧٠].

وعند الزبيدي: «وقال ابن السكيت: وردنا ماء له جبيهة؛ إما كان ملحاً فلم ينضح، أي لم يروِ ما لهم الشرب، وإما كان آجناً، وإما كان بعيد القعر غليظاً سقيُه شديداً أمرُه»[٧١].

وأياً كان من معنى، فمداره حول الماء غالباً؛ مما يدل أن لعَيْمة الجَبَهَهْ ارتباطاً بالجباء الذي لا يخرج معناه عن هذا المدلول.

خاتمة:

مما سبق نرجح أن تكون قرية الفرعة الواقعة في محنى نحيان هي (الحنا)، وأن أختها قرية المهد هي (الجباء) التي بقي من اسمها ما عُرف بـ(عيمة الجَبَهَهْ) الواقعة في منشر (أهل القرى) المسمى صهدان، ويؤيدنا في ذلك أنها العشيرة الوحيدة من عشائر بني عبد العامرية الشّهرية الحجرية المكونة من قريتين فقط، وهو الحال نفسه الذي ينطبق على وصف (الأشجان).

الهوامش:

(*) جامعة الملك سعود

(١) جنوب محافظة النماص، منطقة عسير، المملكة العربية السعودية (N ١٩ ٠٣ ٤٤ ، E ٤٢ ٠٩ ٠٣)، تتكون من قرية الفرعة – بفتح الفاء والراء، وقرية المهد وصوابها بضم الميم لا فتحها وسكون الهاء، وهما في أعلى وادي نحيان، وهو من أكبر أودية سراة بني شهر، وعلى ضفافه كثير

من القرى، ثم يقترن في أسفله بوادي بدوة، حيث يكوِّنان رافداً من روافد وادي ترج المشهور.

(٢) أبو الجياش، بالجيم على الأرجح، وهو اختيار الشيخ حمد الجاسر في كتاب **في سراة غامد وزهران**، منشورات دار اليمامة، ١٣٩١هـ الرياض، ص٥٧٨ - شاعر عباسي من الحجر بن الهنو. انظر لذلك أيضاً **صفة جزيرة العرب**، طبعة دار اليمامة الصادرة عام١٣٩٤هـ الرياض، ص٣٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص٣٨١، ص٣٨٢.

(٤) الرنامات: وردت في الطبعة بالزاي المنقوطة، والترجيح أنها بالراء المهملة، وهي جمع (رنامة). وما زالت اللفظة موجودة بهذه الصيغة، ومنها رنامة العرق ورنوم وغيرهما. وقد وردت (الزقامات) بالزاء المنقوطة والقاف المثناة في بعض الطبعات، وهي مصحفة.

(٥) علق الجاسر على هذه العبارة قائلاً: «الأشجان موجودة، لكنها دامرة، وهي في بلاد العوامر»، انظر هامش ٦ صفحة (ح) من **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد رجال الحجر**، عمر غرامة العمروي، منشورات دار اليمامة، ط١، ١٣٩٧هـ. وعند الحديث عن الجهوة والأشجان، فمقصود الهمداني سراة الحجر لا عموم السراة، انظر كتابنا **موقع الجهوة بين الواقع والمتوقع**، مطبعة الحميضي، الرياض، ١٤٣٦هـ.

(٦) في تسلسل النسب أسماء مفقودة.

(٧) راجع مقالنا (نظام النصة عند عوامر بني شهر) **مجلة العرب** س٣٤، الربيعان ١٤٢٠هـ، ج٩، ١٠، ص٦٩٣.

(٨) حول التقارب بين اللام والنون في مجال نسق الحروف؛ انظر كتاب المجلة العربية رقم ٢١١ للعقاد **اللغة الشاعرة**، ص١٤.

(٩) مادة (شجن)، **تهذيب اللغة**، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبدالسلام هارون وآخرين، بدون معلومات نشر.

(١٠) مادة (شجن)، **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة للطباعة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

(١١) مادة (شجن)، **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

(١٢) **التعليقات والنوادر**، هارون بن زكريا الهجري، مطبعة شركة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ، ص١٣٤٣.

(١٣) الغيل في صدور يلملم، وقد تصحفت كلمة الغيل إلى الليل. انظر مقال طرائف من تصرفات

الشعراء وتصحيفات العلماء في بعض المواضع للدكتور فضل عمار العماري، **مجلة العرب**، ج٩،١٠، مج٤٦، الربيعان ١٤٣٢هـ، ص٦٢٦. والبيت في **شرح أشعار الهذليين** لأبي سعيد السكري.

(١٤) مادة (شجن)، **لسان العرب**، مصدر سابق

(١٥) **بين مكة وحضرموت: رحلات ومشاهدات**، عاتق بن غيث البلادي، ط، ١٤٠٢هـ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ص٣٨

(١٦) هذه أسماء بعض شعاب تنقل السيول من ذي اليارة (الجارة) عبر المحلب إلى ثومين، ومسمياتها غير معروفة في الزمن المنظور، إلا أن دلالاتها توحي بأنها موغلة في التاريخ، ما عدا مسمى شعب سالم، فالمسمى يعود لأسرة حلَّت الفرعة في القرن الثالث عشر الهجري؛ خذ مثلاً التسمي (بالأشرف)، وهو لقب كان شائعاً في العصرين المملوكي والأيوبي، ومن ذلك بعض ملوك بني رسول في اليمن. ومن المناشئ التي تكون نحيان الخنقة وسحبان واللفي وغيرها، وأما وادي (نشيان) في بني مشهور، فإنه وإن كان من روافد وادي (نحيان) العرضية، إلا أنه ليس المنشأ الأساس لنحيان خلافاً لما ارتآه بعض من تكلم حول هذه المسألة كما ورد في **الوجيز في تاريخ وجغرافية بلاد بني شهر** لفائز بن سالم العميري ط١، مطابع الخالد بالرياض، ١٤١٨هـ، ص١٣٩

(١٧) **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص٢٦١.

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) مثل بعض بني مشهور كالأفاقمة في أصدار تهامة أو آل حيي (حجي) في الوطا ما بين العوامر وبلحارث، وكذلك آل خضاري من كنانة وغيرهم، فتكوُّنها لاحق عن فترة الأشجان الأولى.

(٢٠) بتضعيف الياء، كانت آطامًا وآثارًا قديمة، وهي سكنى أهل الفرعة في الماضي البعيد، وقد أزيلت من وقت قريب وأصبح موقعها مواقف سيارات!!

(٢١) الصاحب، بمعنى الحاكم، وقد شاع استخدامها كثيراً في العصور الوسطية. انظر لذلك مثلاً في ثنايا كتاب **نزهة المشتاق** للإدريسي. وتدل على إدارة الحاكم لمنطقة ما، وقد يكون لصاحبها امتياز على عابري بلاده مقابل الحماية، ومن أمثلة ذلك قول ابن حوقل في **صورة الأرض**: «وصاحب السرين..... له على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن رسم»، **مدينة السرين**، الفقيه، ص٣٣.

(٢٢) الظهارة: وهي ما ارتفع من الأرض عما حوله، وتعرف بالظهارات، وهي ظهارة آل النهي وظهارة آل بهيش وظهارة بلحصين، وهي إلى الجنوب من نحيان وإلى الشمال من وادي الغر، وهي من

دلالات الألفـاظ التي يطابق فيها الاسـم المسـمى مثـل (منعا)، فهي في جبل منيـع، والنهي حيث الوادي كالغدير المقفل لا ينهي ماءه، والأشجان في طرائق وشعاب الوادي وغيرها.

(٢٣) الحَـرّا بفتـح الحاء المهملة وتضـعيف الراء المهملة والقصـر، تقع الآن في أطـراف بلاد بني عبد المشرفة على أصدار تهامة، ويبدو أنها من الأسماء الآيلة للاندثار رغم شهرتها سابقاً، فقد كانت تعنـي عمـوم الظهارات، وهو الاسـم الذي حل محلها، ويعتبر هذا من تبدل الأسـماء كما حصـل لقريتي (الحنا والجباء) اللتين حل محلهما قريتا (المهد والفرعة). ولم أجد لهذا الموضـع تعريفاً في المعاجـم التـي تحت يـدي. وقريب من ذلك في اللفـظ لا الموقع: قال ياقوت: «حُرّا- بالضـم ثم التشديد والقصر، موضع، قال نصر: أظنه في بادية بني كلب».

(٢٤) الفرعـة: هي من الوادي أعـلاه؛ يقال: انزل بفارعة الوادي واحذر أسـفله. ومن معانيها: النزول للسكن في أول الناس.

المُهَد: ما نشز من الأرض وارتفع عن الوادي. انظر **اللسان** لابن منظور مادة (فرع، مهد). قال العمروي: «والقريتان أصل الأشجان»، انظر **المعجم الجغرافي - بلاد رجال الحجر**، مصدر سابق، ص١٤٥. وهذا تقييد مرجح للرواية الشفهية، وإلا فإن المصادر المكتوبة لم تبين ذلك.

(٢٥) مادة (حناء)، **القاموس المحيط**، مصدر سابق.

(٢٦) الخفيـة: أحـد روافـد وادي نحيان في أهل القرى. وفي بعض نواحي الوادي ما يشـير إلى انتشـار فاكهة العنب في فترة ما، وذلك ببقاء أسـماء بعض القطع الزراعية، ومنها (جَيْز الحَبَل) في ذي اليارة (الجارة)، والحبل هو العنب.

(٢٧) باب الحنائي، **مشتبه النسبة**، عبدالغني بن سعيد الحجري الأزدي، اعتنى به محمد محيي الدين الجعفري، ط١ ١٣٢٧هـ، الهند، ص٢١.

(٢٨) **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، هامش ٧، ص٢٠٦، وقد جاءت (الحنا) بدون همزة.

(٢٩) **الدرر الفرائد المنظمة**، عبدالقادر بن محمد الجزيري، ط٢، ١٤٢٩هـ، ج٢، ص١٢٩١.

(٣٠) مادة (حنا)، **لسان العرب**، مصدر سابق.

(٣١) مادة (حنو)، **تاج العروس**، ج١٩، الزبيدي، ص١٧٧٣.

(٣٢) مادة (جبا)، **الصحاح**.

(٣٣) مادة (جبى)، تاج العروس، مصدر سابق.

(٣٤) نقل ذلك عاتق البلادي في **بين مكة وحضرموت**، ص٣٣٤، وقد جاءت (جباء) بالمد.

(٣٥) المصدر السابق، ص١٨١، وقد جاءت (جبا) من غير مد.

(٣٦) **الأماكن**، محمد بن موسى الحازمي، منشورات دار اليمامة، ج١، ص١٨١.

(٣٧) يقصد بالأول (جبأ)، وهو فيما سبق من شرحه. قال الجاسر: «وادي الجيّ التي الجبا شعبة من شعابه لا يزال معروفاً». انظر لذلك هامش ص١٨٢، ص٢٩٩ من كتاب **الأماكن** للحازمي. وعن الجيّ انظر **التعليقات والنوادر** للهجري ص١٣٥٠.

(٣٨) المصدر السابق، ص١٨١.

(٣٩) المصدر السابق، الهامش ص١٨١.

(٤٠) **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، هامش٢، ص٧٨.

(٤١) **قرة العيون**، ابن الديبع، تحقيق محمد بن علي الأكوع، المطبعة السلفية، بدون تاريخ، الهامش ص١٩٢.

(٤٢) **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص٢٠٨.

(٤٣) **قرة العيون**، مصدر سابق، الهامش ص ١٩٢.

(٤٤) مادة (جباء)، **البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي**، إسماعيل بن علي الأكوع، طبعة الكويت، ١٤٠٥هـ.

(٤٥) المصدر السابق. ومن هذه المواضع التي حملت الاسم نفسه (جبا السحول) قال عنه الأكوع: «هو الآن أطلال، ولم يتبق إلا حروثه ومزارعه الواقعة في مزارع قرية ذي قيفان وبيوت العدين، وتبعد جبا هذه عن مدينة إب بمسافة ميلين ونصف في الغرب الشمالي». انظر لذلك **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، هامش٨، ص٢١١.

(٤٦) مادة (جبا)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، ط٣، طبعة عالم الكتب، بيروت – لبنان، ١٤٠٣هـ. وانظر أيضاً (لفرش الجبا وبرق الجبا) **صفة جزيرة العرب** للهمداني و**معجم البلدان** لياقوت و**الأماكن** للحازمي.

(٤٧) نقل ذلك الجاسر في معرض تعليقه على (جبا) في كتاب **الأماكن**، مصدر سابق، ص١٨١.

(٤٨) **الطرائف الأدبية**، عبدالعزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص٢٨.

(٤٩) **الأنساب**، سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري، تحقيق د. محمد إحسان النص، ط٤، بدون معلومات نشر، النسخة الإلكترونية،١٤٢٧هـ، ص٦٧٦.

(٥٠) **ديوان الشنفرى**، جمع وتحقيق أميل بديع يعقوب، ط١، ١٤١١هـ، الكتاب العربي، بيروت.

(٥١) **الأماكن**، الحازمي، مصدر سابق، هامش٣، ص١٨١.

(٥٢) **الإكليل**، ج٢، الحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع، إصدارات تريم، اليمن، ٢٠١٠م، ص١٩٢.

(٥٣) المصدر السابق، الهامش ص١٩٢. وقد ذكر مؤلف **معجم المدن والقبائل اليمنية** إبراهيم أحمد المقحفي، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م، ص١٣٢: «حِنّة بكسر الحاء المهملة وتشديد النون، قرية عامرة تقع في الوازعية جنوب شرقي موزع».

(٥٤) **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، هامش ص ١٢١.

(٥٥) **البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي**، مصدر سابق، هامش١، ص٢٠١. وكذلك نقل صاحب **معجم المدن والقبائل اليمنية**، ص٢٩٩.

(٥٦) مادة (جبي)، **لسان العرب**، مصدر سابق.

(٥٧) الأحناء والأجباء: جمع لبعض مشتقات الحنا والجباء، وقد تبين ارتباط معنييهما بما له علاقة بالأودية والوقران والمياه وماله علاقة بدوام الزرع والخضرة. وقد وجد في العامية الحجازية ما يدل على ذلك أيضاً، ومنها (الحنية)، وهو الفراغ الواقع في أسفل الدرج، وكانت تستخدم لوضع خزانات المياه ومرافع الشِرَاب والأزيار لتبريد الماء. انظر لذلك كتاب **النخليون: التكوين الاجتماعي والثقافي**، حسن بن مرزوق النخلي، بدون معلومات نشر في المدينة، ص١٧٩.

(٥٨) مادة (جبأ)، تاج العروس، مصدر سابق.

(٥٩) ومن أكبر الوقران، جمع وقر، في صهدان – منشر أهل القرى – وقر صفا ابن نعيم، ووقر عيمة الجَبَهَة.

(٦٠) مادة (جبأ)، **لسان العرب**، مصدر سابق.

(٦١) سورة لقمان، آية ٧.

(٦٢) سورة يوسف، آية ١٥.

(٦٣) لغة قديمة وردت في شعر العرب، جاء في **الأمالي**: «قالوا: شيرة للشجرة وحقروه، فقالوا: شييرة، قال الرياشي: قال أبو زيد: كنا يوماً عند المفضَّل وعنده الأعراب، فقلت: أيهم يقول شيرة؟ فقالوها، فقلت له: قل لهم يحقرونها، فقالوا: شييرة. وحدثني أبو بكر بن دريد، قال: حدثني أبو حاتم، قال سمعت أم الهيثم تقول: شيرة، وأنشدت:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكن الله من (شيرات)

فقلت يا أم الهيثم صغريها، فقالت: شييرة». وكذلك قولهم: حار يار أي جار، كما قالوا الصهاريّ للصهاريج. انظر **الأمالي**، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ج٢، ص٢١٤.

(٦٤) مادة (عجم)، **القاموس المحيط**، مصدر سابق.

(٦٥) مادة (عجم)، **تهذيب اللغة**، مصدر سابق.

(٦٦) انظر كتاب **اللهجات العربية الغربية القديمة**، شيم رابين، ترجمة عبدالرحمن أيوب، ط١٩٨٦م، ذات السلاسل، الكويت، ص١١١، ص١١٣.

(٦٧) مادة (تلفم)، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، مصدر سابق.

(٦٨) قطعة زراعية صغيرة، ولعله من انقض: إذا تكسر وتقوض، إذا تهدم، وهو من استصلاح الأرض.

(٦٩) تنطق كلفظة (السوأى) في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ**﴾، سورة الروم، آية ١٠.

(٧٠) مادة (جبه)، **تهذيب اللغة**، مصدر سابق.

(٧١) مادة (جبه)، **تاج العروس**، مصدر سابق.

بين الغربة والاغتراب

تأمّلات في حيثيات لقاء عبدالوهاب المالكيّ وأبي العلاء المعريّ

بقلم نادية العزاوي (*)

كيف فات المتنبيّ - وهو السبّار لأغوار المواقف - أنّ جملته النقدية البليغة الشيّقة: «الشعر جادَّة، وربما وقع الحافر على موضع الحافر»[١]، هي انزياح عن الجملة الوجوديّة الكبرى، فالحياة هي الجادة الحقيقية التي تتماس أو تتقاطع الخطى على منعرجاتها وشعابها، باختلاف منطلقات البشر ومراميهم.

وهكذا ولحكمة ما، وفي منطقة ما بين جادتَي الحياة والشعر، التقى القاضي أبو محمد عبدالوهاب بن عليّ بن نصر البغداديّ المالكيّ التغلبيّ (ت٤٢٢هـ)[٢]، أبا العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعريّ التنوخيّ (٤٤٩هـ)[٣]، لقاءً متعدّد الأبعاد، أوضحها اللقاء المباشر الذي تمّ بينهما: مرة في بغداد خلال زيارة الأخير لها (٣٩٩- ٤٠٠هـ)، والأخرى في المعرّة سنة (٤٢٠هـ) تقريباً خلال مرور المالكيّ عليها كما سيأتي.

وفي ظني خلف هذا اللقاء ثمة أبعاد أهم وأعمق، ترتبط بجوانب رمزية واعتبارية تنطوي عليها تجربة كل واحد من هذين العلَمين:

١- لا يغفل الدارس أهمية البيئة السياسيّة والاجتماعيّة التي جمعتهما، فهما

من مخضرمي القرنين الرابع والخامس الهجريين، مع فارق معين في حسابات السنين، فمثلما بكّرت الحياة بميلاد القاضي عبدالوهاب (٣٦٢هـ)، بفارق سنة واحدة عن ميلاد صاحبه (٣٦٣هـ)، فقد عجّلتْ بموت الأول قبل صاحبه بأكثر من ربع قرن، لكنهما على العموم اكتويا بالأحداث السياسية نفسها، والصراعات الساخنة بين القوى الكبرى - آنذاك-: الخلافة العباسيّة، والخلافة الأمويّة في الأندلس، والدولة البويهيّة، والدولة الفاطميّة، والروم، فضلاً عن الصراعات الداخلية الدمويّة بين الإمارات والدويلات الصغرى، التي مزقتْ جسد الدولة العربيّة الإسلاميّة المترامية الأطراف، والمحن والنكبات الصحيّة والاقتصاديّة العصيبة التي عصفت بها.

في خضم هذا اللظى وُضع الاثنان في احتكاك مباشر مع أرباب السلطة، من الجانبين الترغيبيّ والترهيبيّ، بأساليبهم في استمالة العلماء أحياناً، أو استدراجهم والإيقاع بهم أحياناً أخرى، بقصد التحشيد الإعلاميّ ضد القوى المناوئة لهم، وهي الدلالة الماكرة التي انطوى عليها الخبر الذي ذكره ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) عن رحيل القاضي المالكيّ إلى مصر في زمن الفاطميين: «وتأذّن خلفاء العبيديين بإكرامه وإظهار فضله، نعياً على بني العباس في اطِّراح مثل هذا الإمام»[٤]، ووُضع المعريّ في لحظة سياسيّة عنيفة أمام رأس السلطة المرداسيّة عام (٤١٨هـ)، حين اجتيحت المعرة، وهدّد أمنها وسلامة شيوخها ووجهائها[٥]، فدُفع أبو العلاء تحت وطأة الضرورات التي تبيح المحظورات إلى التفاوض مع أسد الدولة المرداسيّ واستعطافه - وما أثقلها مهمة على صاحبنا المتعفف - فقال له: «الأمير - أطال الله بقاءه- كالسيف القاطع، لانَ متنه وخشن حدّاه، و كالنهار الماتع، قاظ وسطه، وطاب إبراده ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٦]، فقال له صالح: قد وهبتها لك يا أبا العلاء»[٧]. وقد سجل (الشيخ) امتعاضه من الحادثة حين قال:

فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسدْ

فـلا يعجبني هـذا النفاق فكم نفّقتْ محنةٌ ما كسدْ[٨]

قد تبدو مثل هذه المواقف مألوفة ومعتادة، ولكنها ليست كذلك على أمثال هذين العالمَيْن، بما يمتلكان من تحفّظ مبدئيّ على مفهوم السلطة ومزاجها، الذي يفسد استقلالية الجو العلميّ الذي يحيط به العالم أو المفكر نفسه، وهو ما أراده بالضبط القاضي عبدالوهاب بقوله: «علامة شقاء العالم أن يقف بباب السلطان»، قيل: ومن ههنا: «رزقه تقتّر عليه من الحلال»[٩].

وأخبار تسامي المعريّ على أعطيات ذوي السلطة معروفة مشهورة، وهو القائل في مقدمة سقط الزند: «ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولا مدحتُ طالباً للثواب.....فالحمد لله الذي ستر بغفّة من قوام العيش، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر»[١٠]، وقال في بعض شعره:

والموت أحسن بالنفس التي ألفتْ عزّ القناعة من أنْ تسأل القوتا[١١]

قد يبدو موقف القاضي عبدالوهاب أكثر حرجاً، لتماسّه - وهو القاضي- بالمؤسسة الحاكمة المتنفّذة، الأمر الذي يجعل العالم -في حال تمرّده- عرضة لكلّ التبعات الجزائيّة المتوقّعة: العزل، الملاحقة، المصادرة، المضايقة، القتل..... إلخ[١٢]، وقد نال المالكيّ حصته من بعضها، فكان العوز وضيق ذات اليد التي جعلته يكاشف مودعيه، حين قرّ عزمه على مغادرة مسقط رأسه، ومدرج شبابه بغداد، في لقطة دراميّة أليمة: «والله يا أهل بغداد، لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين، كل غداة وعشيّة، ما عدلتُ ببلدكم بلوغ أمنية»[١٣]، وهو القائل أيضاً:

يا لهف نفسي على شيئين لو جُمعا عندي لكنتُ إذن من أسعد البشر
كفاف عيشٍ يقيني كلَّ مسألة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

ولكنّه لجأ إلى ما تعافه مبدئيَّته، مفتشاً عن مؤسسة جديدة قد توسع له أبواب الرزق، فالرحيل هو الحلّ البديل عند الضرورة كما صرّح في قول: .

أطال بين الديار ترحالي قصورُ مالي وضعف آمالي

إنْ بـرتُ في بـلـدة مشـيتُ إلـى أخـرى فما تستقرّ أجـمـالي[١٤]

فرحل إلى الشـام قاصداً المسير إلى المغرب حاضنة المذهب المالكيّ، لكنه لم ينل مبتغاه. «وكان خاطَبَ فقهاء أهل القيروان في الوصـول إليها، فرغّبه في ذلك أبو عمـران..... وكسـره عنه أبو بكر ابن عبدالرحمن»[١٥]، فلـم يجد بداً إلاّ الإقامة في بلد تتبنّى سـلطته معتقداً آخر غير معتقده، وإن كانت إقامة قصـيرة تجاوزت السـنة قليلاً، لم تفصح المصـادر عن تفصيلات وافية عنها سوى الثراء والقبول اللذيـن غنمهما هناك، والذي انتهى بغتة بمشـهد ملتبـس لقي فيه حتفه، بين أن يكون موتاً طبيعياً أو اغتيالاً بطريقة محترفة: «واستقر الفقيه أبو محمد بمصر، فحمل لواءها، وملأ أرضها وسـماءها، واستتبع ساداتها وكبراءها، وتناهت إليه الغرائـب، وانثالـتْ في يديـه الرغائب، فمات لأول ما وصـلها من أكلة اشـتهاها فأكلها، زعموا أنّه قال وهو يقلّب ونفَسـه قد تصـعّد وتصوّب: (لاإله إلاّ اللّه، إذا عشنا متنا)»[١٦].

كانت عزلة أبي العلاء النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، التي فرضها على نفسـه، قد حققت له ما أراد تماماً، من وضع الحُجُب بينه وبين أعطيات السلطة التي عُرضـت عليه، وبعضـها من سـلطة مصـر نفسـها؛ فذُكر: «أنّ المستنصـر المستولي على مصر أحد العبيديين بذل لأبي العلاء ما ببيت المال بمعرة النعمان من المال الحلال، فلم يقبل منه شيئاً، وكتب داعي الدعاة بمصر إلى تاج الأمراء ثمـال بن صـالح، وكان إذ ذاك نائباً عـن العبيديين بحلب ومعـرة النعمان، بأن يجـري لأبي العلاء مـا تدعو إليه حاجته بجميع مهامه وأسـبابه، وما يحتاج إليه ممّا هو بُلْغة له من ألذّ الطعام، وأن يضاعف حرمته، ويرفع منزلته عند الخاص والعام، فامتنع من قبول ذلك، وكتب الوزير الفلاحيّ إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك متولي حلب وأعمالها بأنْ يحمل أبا العلاء إلى مصر ليبني له دار علم يكون متقدّماً فيها، وسمح له بخراج معرة النعمان في حياته وبعده، فسار عزيز الدولة إلـى المعرة واجتمع بأبي العلاء، وقرأ عليه السـجل فاسـتمهله، وكتب إلى الوزير الفلاحيّ يستعفيه من ذلك، فأعفاه وسمح بترك ذلك كلّه»[١٧].

لقد نجا المعريّ من المصير الذي وقع فيه صاحبه، بفضل ثوابت معينة حدّدها لنفسه بصرامة؛ إذ قال:

أنهاك أنْ تلي الحكومة أو ترى ... حلف الخطابة أو إمام المسجدِ
وذرِ الإمارة واتخاذَك درّة ... في المصر يحسبها حسام المنجدِ
تلك الأمور كرهتها لأقارب ... وأصادقٍ فابخل بنفسك أو جُدِ
ولقد وجدتُ ولاء قومٍ سُبّةً ... فاصرفْ ولاءك للقديمِ الموجدِ[18]

٢- البيئة العلمية بُعْد آخر مشترك بين هذين العالمين: بين الفقيه الذي نظم شعراً انتزع إعجاب القدماء والمحدثين -على قلّته - ولكنه خجل منه في كبره، وعدّه من بضاعة الشباب، «فإنّه كان في زمن الصبا»[19]، وبين الشاعر المفكر، الذي ضاق ذرعاً بشعره أيضاً، وعدّه من جنايات الشباب أيضاً؛ «وقد كنتُ في ريّان الحداثة وجنّ النشاط، مائلاً في صغو القريض، أعتدُّه بعض مآثر الأديب، ومن أشرف مراتب البليغ، ثم رفضته، ....رغبة عن أدب معظم جيّده كذب، ورديئه ينقص ويجدب»[20].

كلا الرجلين ينحدر من أسرة علميّة أسهمت بشكل ما في صقله وتوجيهه العلميّ، ولئن فصلت المراجع في بيان مكانة أفراد أسرة المعريّ، وهم يتوارثون العلم والقضاء والأدب[21]، فهو من (البيوتات المعرقة)، فإنها بدت شحيحة في توضيح المعلومات الشخصيّة عن أسرة القاضي البغداديّة، من ذلك - مثلاً- ما ذكره ابن النجار (ت٦٤٣هـ) في ذيله على تاريخ بغداد عن والده (ت ٣٩١هـ): «علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون بن مالك، أبو الحسن، الفقيه المالكيّ، والد القاضي عبدالوهاب وأبي الحسن محمد....كان من أعيان الشهود المعدّلين ببغداد»[22]، وذكر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) عن أخيه (٤٣٧هـ) ما يؤشّر مكانة علمية طيبة بقوله: «وكان أخوه أبو الحسن محمد بن علي بن نصر أديباً فاضلاً، صنّف كتاب **المفاوضة**....وهو من الكتب الممتعة، في ثلاثين كراسة، وله رسائل»[23].

٣- شـكّلتْ (بغداد) بُعداً مركزيـاً عميقاً في تجربتهما، رحـل إليها المعرّيّ، ورحـل عنها القاضـي المالكيّ، وفي الحالين هي ليسـتْ مكاناً عابـراً عندهما، بل حضور معرفي وتاريخيّ ووجدانيّ، خلّف زخماً كبيراً في حياتهما وشعرهما، أقلّها أنّ الخروج عنها مثّل نقطة تحوّل نوعيّ في سـيرتهما الشخصية والعلميّة، ما بين أقصى العزلة عند المعريّ، وأقصى الاندفاع والاندماج عند المالكيّ.

تجشّـم المعريّ عناء السـفر إليها، ودخلها سنة (٣٩٩هـ) لأسباب اختلف في تحديدها: سياسيّة أو اقتصاديّة أو اجتماعيّة أو ثقافيّة، أو هي مجتمعة، كما رجّح العلامـة الراجكوتـيّ: «والذي يخلُص إلينا من كلامه، نثـيره ونظامه، أنه زارها لدار الكتب، ولقاء فحول العلم والأدب، والاسـتمتاع بحضور محافلهم وحلقاتهم، والإفادة والاستفادة من محاضراته ومحاضراتهم....على أنه كان أسأمه بأوطانه الضرير والمضرة، فإذا السبب الثاني تبرُّمه من الفتن الهائلة، والدول الدائلة... فكأن هاتيك الفتن المتوالية رنّقت سائغ منهله، فعزم على الرحلة والنقلة»[٢٤].

وقد اختلفت الآراء أيضـاً في تحديد الأسـباب الدقيقة لرحيل المالكيّ عنها؛ قـال محمد بن حمادة البرنسـيّ (ت نحو منتصـف القرن السـادس): «واختلف في سـبب خروجه من بغداد؛ فقيل: من إملاق، وقيل: إنّه قال كلاماً في الشـافعيّ فخاف على نفسه، فخرج فاراً»[٢٥].

وإذ أرادها المعريّ ملاذاً آمناً، وإذ اصـطدم فيها بعقبات نغّصت عليه طيب الإقامة، وعلى أنّ مكوثه فيها لم يزد على سـنة وسـبعة شـهور، أو تسعة في رواية، فإنهـا تركت أثراً حيّاً في نفسـه وأدبه، يقول العلامة الجندي: «ولا أعلم شـاعراً زار مدينـة مـن المـدن، فأكثَرَ مـن الثناء عليها وعلـى أهلها، ومـن الحنين إليها وإليهـم مثل أبي العلاء، فإنه أكثر من الثناء والمـدح على بغداد وأهلها، واعترف لهـم بـكل جميل، وأكثَرَ مـن اللوعة والحزن علـى فراقها، وتمنـى أن يموت فيها في نظمـه ونـثره»[٢٦]. كيف لا وقد هيّأتْ له صـحبة مع جِلّة علمائها، ووضـعته في صـميم مجالسـهم ومناظراتهم، فظل يكتب في الحنين إليها وإلـى أهلها قائلاً:

«من رحل عن بغداد لم يجد منها عوضاً، وإن وجد محلاً مروضاً، لأنّ غابر العلم بها غريض، وصحيح الأدب في سواها مريض»، وظل بعد سنين طوال يستعيد الذكريات والأشواق وأسماء المواضع فيها:

على الدنيا السلامُ فما حياةٌ إذا فارقتكم إلاّ نعيّ

وقوله:

ألا زوِّدوني شَربةً ولوانني قدرتُ إذاً أفنيتُ دجلة بالجرعِ
وأنّى لنا من ماء دجلةَ نغبةٌ على الخمسِ من بُعدِ المفاوزِ والربعِ

وقوله:

وما أربي إلاّ معرّسُ معشرٍ هم الناسُ لا سوق العروسِ ولا الشطُّ[٢٧]

وكتب إلى أهل بلدته: «فشاهدتُ أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتي فيه»[٢٨]، لا بل صرح في بعض شعره بأسفه إذ لم يتديّرها بديلاً عن معرَّته:

يالهف نفسي على أني رجعت إلى هذي البلاد ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيتُ أموراً لا توافقني قلتُ: الإيابُ إلى الأوطان أدَّى ذا[٢٩]

في هذه اللحظة التاريخيّة الشديدة الخصوصيّة، التقى العَلَمان لقاء تعارف فقهيّ، مداره بيتان من الشعر شاكَسَ فيهما المعريّ الفقهاء، على عادته:

يدُ بخمس مئين عسجد وُديت ما بالُها قُطعتْ في ربع دينار[٣٠]
تناقُض ما لنا إلاّ السكوت له وأنْ نعوذ بمولانا من النار[٣١]

فتصدّى القاضي للإجابة عليه قائلاً: «لَمَّا كانت أمينة كانت ثمينة، فلمّا خانت هانتْ»[٣٢].

ما الظروف التي أحاطت بهذا الموقف؟ وكيف مهّدت لتوثّق الصلة بين رجلين مختلفين في الميول والآراء؟ بين قاض وفقيه ملتزم بتوجهات مذهبيّة معينة، وبين مفكر متمرد على الالتزام الفكريّ، إلى النقيض بإثارة الأسئلة المربكة والشكوك على كل مقتضيات التمذهب، وهو القائل:

قلّدتني الفتيا فتوّجني غداً تاجاً بإعفائي من التقليد[٣٣]

لا بل يجاهر على نحو أجرأ بالقول:

وينفر عقلي مغضباً إنْ تركته سدىً واتبعتُ الشافعيّ ومالكا[٣٤]

نعم إنّ سيرة القاضي العلمية والشخصية تميزه بحسن النظر والبراعة في الجدل، وهو القائل: «التقليد لا يثمر علماً، ولا يفضي إلى معرفة، وقد جاء النصّ بذمّ من أخلد إلى تقليد الآباء والرؤساء، واتباع السادات والكبراء، تاركاً بذلك ما ألزمه من النظر والاستدلال، وفرض عليه من الاعتبار والاجتهاد.....تنبيهاً بها على علة خطر التقليد، بأنّ فيه ترك اتباع الأدلة...لأنّ صحة المذهب لا تتبيّن من فساده باعتقاد المعتقد له، وشدة تمسّكه به، وإنما يتميز صحيح المذاهب من فاسدها، وحقها من باطلها بالأدلة الكاشفة عن أحوالها، والمميزة بين أحكامها، وذلك معدوم في المقلِّد»[٣٥].

ومع ذلك، فالمسافة بين الاثنين ليست بالقليلة، ولكنّ الصلة الإنسانية بينهما كانت أرحب، ربما لأنها مبنية على مشتركات من القيم والمبادئ، فبعد عقدين تقريباً من التعارف الأول، سيرحل القاضي ابنُ بغداد وعاشقها عنها مضطراً، ويعرّج في طريقه نحو مصر على صاحبه في معرّته، وإذ أحسّ أبو العلاء بضائقة صاحبه، وإذ عجَز عشير القاضي وأهله عن مدّه برغيفين في كل غداة وعشيّ، أمدّه صاحبه بما يستطيع من زهيد المال الذي يملك (ثلاثين قطعة فضية)، مع قصيدة تتقطَّر عاطفة وحياءً ينمَّان عن مشاعر التقدير النبيلة:

أيبسط عذري منعم أم يخصّني بما هو حظي من أليم عتابِ
قبول الهدايا سُنّة مستحبّة إذا هي لم تسلك طريق تحابي
فياليتني أهديتُ خمسين حجة مضتْ لي فيها صحتي وشبابي
وقلت له فاتركْ ثلاثين أسوداً متى ما تُكشّف تُلفَ غير لُبابِ
إذا أسكتَ المحتجُّ كلَّ مناظر فعند ابن نصر نجدة بجوابِ
وما أنا إلاّ قطرة من سحابه ولو أنني صنّفتُ ألفَ كتابِ
وبين يديه كفرطاب وإنسها يعيش لفقد الماء عيش ضبابِ
لعل الذي أنفدتُ يكفيه ليلةً لإسباغ طهرٍ حان أو لشرابِ[٣٦]

ولئـن اجتمعـت وجـوه بغداد وعلماؤها لوداع القاضـي كما ذكرت المصـادر: «شيّعه يوم فصَل عنها، من أكابرها، وأصحاب محابرها، جملة موفورة، وطوائف كثيرة.... وزعموا أنه ارتجل يومئذ هذه الأبيات:

سـلام علـى بـغـداد في كـل مـوطـن ... وحـق لـهـا مـنـي الـسـلام المضـاعـفُ
لـعـمـرُك مـا فـارقـتـهـا قـالـيـاً لـهـا ... وإنّـي بـشـطـيْ جـانـبـيـهـا لـعـارفُ
ولـكـنـهـا ضـاقـت عـلـيَّ بـرُحـبـهـا ... ولـم تـكـن الأرزاق فـيـهـا تـسـاعـفُ
فـكـانـت كـخِـلٍّ كـنـتُ أهـوى وصـالـه ... وتـنـأى بـه أخـلاقـه وتـخـالـفُ»[٣٧]

فإنّ علماء بغداد ووجوهها: سـبق أن أحاطوا المعري أيضـاً لتوديعه، في مشهد مؤثـر لم يغادر ذاكرته، فقال: « ولَـمَّا آنسـوا تشـميري للرحيل، وأحسّـوا بتأهُّبي للظعن، أظهروا كسـوف بالٍ، وقالوا من جميل كل مقال، وتلفّعوا من الأسف ببُرد قشـيب، وذرفت عيون أشـياخ شـيب... وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم بأمور تنهى عنها القناعة، والله يحسـن جزاءهم....وكنتُ إذا أخبرتُ رجلاً بمسـيري بانتْ فيه كآبة، وبدتْ عليه كبوة، فكتمتُ ذلك عنهم»[٣٨].

علاقـة الرجلين ببغداد تدفع فضـول الباحث إلى تحرّي الإجابة عن أسـئلة تفصيلية: أين كان يسكن القاضي في بغداد؟ وأين نزل المعريّ منها ؟ وأين التقيا؟

فضـول لا تمدّه المصادر بحصـيلة وفيرة، ربما مع المعريّ المسألة أيسر؛ فقد نصّت الأخبار على ذلك بدءاً من دخوله إليها، مروراً بمواضع الأقامة التي ذكرها في شـعره في الحنين إليها، وانتهاءً بطريق العودة. فقد ذكر محلة (القطيعة) في إحدى قصائده إلى التنوخي الصغير:

أيـام واصـلـتـنـي وداً وتـكـرمـةً ... وبـالـقـطـيـعـةِ داري تـحـضـر الـنـهـرا[٣٩]

وهـي في الكـرخ، وهمـا في الحقيقة قطيعتان: قطيعة الربيع ويسـكنها التجار غالباً، وقطيعة الفقهاء، التي يرجّح أنه سكن فيها، استناداً إلى قوله:

بمحلة الفقهاء لا يعشو الفتى ... نـاري ولا ينضو المطيّ عـزائـمـي[٤٠]

وفي الكرخ في محلة (بين السورين) دار الكتب التي قصد بغداد من أجلها.

ومن الطريف أن ترد (القطيعة) في إسناد خبر كان القاضي المالكي بعض رواته، وهو مما حدّث به في دمشق، كما ذكر ابن عساكر، في ترجمة (ذي النون المصريّ): «أخبرنا أبو الحسن عليّ بن أحمد المالكيّ، أنبأ أبي أبو العباس الفقيه المالكيّ، أنبأ القاضي أبو محمد عبدالوهاب بن علي بن نصر البغداديّ المالكيّ، نا أبو الفتح يوسف بن مسرور القواس، نا أبو الفضل الخراسانيّ الصيرفيّ. كان ينزل قطيعة الربيع. إملاءً سمعته من لفظه من أصله»[٤١].

كان دخول المعريّ إلى بغداد نهراً من قرية (الفارسيّة) على ضفة نهر (عيسى)، بعد (المحوّل)، وسيرد ضمناً ذكر (المحول) في بدء انطلاق رحلة القاضي على نحو ما ورد في الخبر الآتي: «أخبرنا أبو الكرم المبارك بن فاخر ابن محمد بن يعقوب النحويّ المعروف بابن الدباس في كتابه إلينا من بغداد، قال: أنشدني شيخنا أبو القاسم عبدالواحد بن علي بن برهان النحويّ، أنشدني القاضي عبدالوهاب بن نصر المالكي، وقد ودعته بالصراة من بغداد....»[٤٢]، و(الصراة) كما أوضح ياقوت: «نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول. بينها وبين بغداد فرسخ. ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد»[٤٣].

وقد حدد العالمان أحمد سوسة ومصطفى جواد في كتابهما **دليل خارطة بغداد** الموضع بمعلومات ضافية يحسن ذكرها: «وقد نشأتْ بلدة مهمة....تسمى بلدة (المحول)، وذلك في الموقع الذي كان يتفرع منه نهر الصراة ونهر عيسى، وكان في هذا الموقع سدّ على النهر الرئيس (نهر عيسى العظيم) لتنظيم المياه فيه.....، وقد سميت هذه البلدة (المحول الكبير) لتمييزها عن المواضع الأخرى التي بهذا الاسم؛ لأن السفن التي كانت تأتي من الفرات في النهر الرئيس كانت تقف عند السدّ، وتحول ما تحمله من بضائع إلى سفن أخرى في الجانب الآخر من السدّ، لتنحدر من هناك إلى دجلة في مجرى نهر عيسى الأعظم، ومن ثم تصعد في نهر دجلة حتى تصل إلى بغداد»[٤٤].

على أن المراجع شحيحة جداً في تحديد موضع سكن القاضي إلا إشارات

سـريعة لا تشـفي الغليـل، من مثل قول ابـن النجار عن والد القاضـي: «من أهل الجانـب الشـرقيّ»[٤٥]، فهل كان سـكنه بجـوار أبيـه، أم اسـتقلّ في جانب آخر ومناطق أخرى منها؟

ومثلمـا عكَّـرت صـفوَ إقامـة المعـري في بغداد أجـواء منغصـة لَمَّـح إليها شـاكياً: «ووجدتُ العلم ببغداد أكثر من الحصـا عند جمرة العقبة، وأرخص من الصـيحاني بالجابرة، وأمكن من الماء بخضـارة، وأقرب من الجريدة باليمامة، ولكن على كل خير مانع، ودون كل درة خرساء موحية أو خضراء طامية»[٤٦]، فإنّ أجواء قريبة ستقض مضجع القاضي، وتدفعه إلى الغربة عن مدينته على نحو ما وصف بامتعاض وتذمّر:

متى يصل العطاشُ إلى ارتواءٍ ... إذا استقتِ البحارُ من الركايا
ومنْ يثني الأصاغر عن مرادٍ ... وقد جلسَ الأكابرُ في الزوايا
وإنَّ ترفُّع الوُضعاء يومًا ... على الرُّفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي ... فقد طابتْ معاقرة المنايا

ولكنّ الامتعاض لم يمحُ ذكراها من شـعره، حتى المنسـوب منه إليه، فهو في المحصلة النهائية دليل على موقف، سواء أكان هو قائل الشعر، أو تمثّل به:

أتبكي على بغداد وهي قريبة ... فكيف إذا ما ازددتَ عنها غداً بعدا
لعمرك ما فارقتُ بغداد عن قلىً ... لها أن وجدنا للفراق بها بدّا
إذا ذكرتْ بغداد نفسي تقطّعتْ ... من الشوق أو كادتْ تموت بها وجدا
كفى حزناً أنْ رمتُ لم استطعْ لها ... وداعاً ولم أحدثْ لشاطئها عهدا[٤٧]

٤- ويأبى الاغتراب أن يفارقهما حتى في آخر مشهد من ترجمتهما، في صورة (القبر) التي استوقفت بعض العلماء، فتركوا شهاداتهم للتاريخ، قال ابن خلكان في ترجمة المعريّ: «وقبره في ساحة من دور أهله، وعلى الساحة باب صغير قديم، وهـو على غاية ما يكـون من الإهمال وترك القيام بمصـالحه، وأهله لا يحتفلون به»[٤٨]. وعرَّج محمد بن أحمد العبدريّ (بعد ٧٠٠هـ) خلال زيارته مصـر على قبور بعض العلماء، فقال: «وفي القرافة وغيرها من أرض مصر من قبور العلماء

والصلحاء ما لا يحصره عدٌّ، منها: قبر....القاضي أبي محمد عبدالوهاب.... وليس لها هنالك اشتهار، ولا يوقف عليها إلاّ بتعريف مَن له بها عناية»[٤٩].

ويرجح د. عبدالحكيم أنيس اندثار قبره وضياعه، مستدلاً على ذلك بما ورد في رحلتي الشيخ عبدالغني النابلسيّ (ت ١١٤٣هـ)، والحسين بن محمد الورثيلانيّ (ت ١١٩٣هـ) من حديثهما عن قبري الإمامين عبدالرحمن بن القاسم وأشهب في القرافة خلال زيارتهما مصر، وإغفالهما ذكر قبر القاضي المالكيّ القريب من الموقع نفسه[٥٠].

بين دروب الغربة والاغتراب الموحشة، ستظلّ قوافل العلماء والمبدعين تحثّ الخطى، مستهديةً بنور كلمة الحقّ.

الهوامش:

(*) الجامعة المستنصرية - كلية التربية.

(١) **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣، مطبعة السعادة، مصر ١٣٨٣هج- ١٩٦٤م: ٢/ص٢٨٩.

(٢) ينظر: **القاضي عبدالوهاب البغدادي المالكيّ في آثار الدارسين** (دراسة وثائقية)، جمع وتحقيق ودراسة د. عبدالحكيم أنيس، ط١، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ١٤٢٤هج- ٢٠٠٣م. وستتم الإحالة على نصوصه التي جمعت بدقة وجهد علميّ طيب، جزاه الله خيراً.

(٣) ينظر: **تعريف القدماء بأبي العلاء**، جمعه وحققه لجنة من رجال وزارة المعارف العمومية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٣هج-١٩٤٤م: ص١٢.

(٤) **القاضي عبدالوهاب**: ص٢٦٧.

(٥) **تاريخ المعرة**، محمد سليم الجندي، ط٢، دمشق ١٩٩٤م: ج١/ص١٢٩-١٣٣.

(٦) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٧) **تعريف القدماء بأبي العلاء**: ٣٥، من ترجمة القفطي في **إنباه الرواة على أنباه النحاة**.

(٨) **لزوم ما لا يلزم**، أبو العلاء المعريّ، دار صادر، بيروت: ١/ ص ٤٠٤.

(٩) **القاضي عبدالوهاب**: ص٢٧٢، ٢٩٤.

(١٠) **سقط الزند وضوؤه**، أبو العلاء المعريّ، رواية الأصفهانيّ، تحقيق د. السعيد السيد عبادة، ط١، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م: ص١٦. وينظر: **أبو العلاء وما إليه**، عبدالعزيز الميمنيّ الراجكوتيّ، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٤هج: ص٧٣-٧٥.

(١١) **سقط الزند وضوؤه**: ص٦٩٠.

(١٢) تنظر: **المدرسة البغدادية للمذهب المالكيّ (نشأتها، أعلامها، منهجها، أثرها)**، د. محمد العلميّ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط١، دبي ١٤٢٤هج- ٢٠٠٣م: ص٤٣، ٢١٨، ٣١١- ٣١٥.

(١٣) **القاضي عبدالوهاب البغداديّ المالكيّ**: ص٦٤ . من ترجمة ابن بسام في كتابه **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**.

(١٤) **ديوان القاضي عبدالوهاب**، جمع وتوثيق وتحقيق د. عبدالحكيم أنيس، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي: ص ٣١، ٣٨.

(١٥) **القاضي عبدالوهاب**: ٩٩.

(١٦) م. ن: ص٦٥، وينظر تعليق المحقق هامش ٣ من ص. ن.

(١٧) **الجامع في أخبار أبي العلاء المعريّ وآثاره**، محمد سليم الجندي، علق عليه وأشرف على طبعه عبدالهادي هاشم، دار صادر: ١/ص ٣٠٩- ٣١١.

(١٨) **لزوم ما لا يلزم** : ١/ص٣٨٩ .

(١٩) **القاضي عبدالوهاب**: ص١٦١.

(٢٠) **سقط الزند وضوؤه**: ص١٥، ١٦.

(٢١) ينظر: **معجم الأدباء**، ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦ هج)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، ط١، بيروت ١٩٩٣م: ١/٢٩٦- ٣٠٢، وينظر أيضاً: **أبو العلاء وما إليه**: ص٣٠- ٣٤.

(٢٢) **القاضي عبدالوهاب**: ص١٥٣.

(٢٣) م. ن: ص١٦٩ – ١٧١.

(٢٤) **أبو العلاء وما إليه**: ص١٠٢.

(٢٥) **القاضي عبدالوهاب**: ص١١٢.

(٢٦) **الجامع في أخبار أبي العلاء**: ١/ص٢٨٩.

(٢٧) **سقط الزند وضوؤه**: ٥٥٩، ٥٧٥، ٧٠٢، وينظر أيضاً: **الجامع في أخبار المعريّ**: ١/ص٢٩٠، ٢٩١.

(٢٨) **تعريف القدماء بأبي العلاء**: ٢٢٢. من ترجمة **مسالك الأبصار** لابن فضل الله العمري.

(٢٩) **لزوم ما لا يلزم**: ٤٠٦/١.

(٣٠) يستشفّ محمد سليم الجندي من قوله (ربع دينار) وإشارات أخرى وردت في شعره أنه كان متفقهاً على المذهب الشافعيّ؛ (لأنّ في مذهب أبي حنيفة تقطع يد السارق بعشرة دراهم)، **الجامع في أخبار أبي العلاء**: ٢/٥٨٧- ٥٨٨.

(٣١) م. ن: ٥٤٤/١ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

(٣٢) **القاضي عبدالوهاب**: ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٣٣) **لزوم ما لا يلزم**: ا/ ص٣٩٨.

(٣٤) م. ن: ٢/ ص٢٢٧ .

(٣٥) **القاضي عبدالوهاب**: ص٢٣، ٢٤ .

(٣٦) **سقط الزند وضوؤه**: ص٧٢٢، ٧٢٣. وينظر أيضاً: **أبو العلاء وما إليه**: ص ٢٢٢، **القاضي عبدالوهاب**: ص٢٧ – ٣٠.

(٣٧) **القاضي عبدالوهاب**: ص ٦٤.

(٣٨) **أبو العلاء وما إليه**: ص١٦٦- ١٦٧.

(٣٩) **سقط الزند وضوؤه**: ص٧٢٤.

(٤٠) م. ن: ص٦٣٧.

(٤١) **القاضي عبدالوهاب**: ص١٢٥.

(٤٢) م . ن: ص١١٧، وهامش (٥) من الصفحة نفسها أيضاً.

(٤٣) نفسه.

(٤٤) **دليل خارطة بغداد المفصل**، د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة، مطبعة المجمع العلمي العراقيّ، بغداد ١٣٧٨هج -١٩٥٨م: ص ٧٣.

(٤٥) **القاضي عبدالوهاب**: ص ١٥٣.

(٤٦) **أبو العلاء وما إليه**: ص ١٧٣.

(٤٧) **ديوان القاضي عبدالوهاب البغداديّ**: ص ٤٢، ٦٤.

(٤٨) **وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر: ١/ص ١١٥.

(٤٩) **القاضي عبدالوهاب**: ص١٨٩.

(٥٠) م. ن: ص٣٤١، هامش (٢) من الصفحة نفسها أيضاً.

ثُنَائِيَّةُ الإبداعِ الشِّعريّ والمُمَارَسَةِ النَّقْدِيّة لَدَى الأديبِ العَرَبيّ في القرنين الخامِس والسّادس الهِجريَّين (عليّ بن أفلح العبسي أُنموذجًا)

(٢)

بقلم: د. عبدالرازق حويزي(*)

الأُسس النّقديّة عند ابن أفلح:

سبق أن ذكرتُ أن تراثَ (ابن أفلح) النَّقدي لا يتجاوز كتابَه المطبوع تحت عنوان **البديع**، ففيه أثبت العديدَ من المصطلحات التي حاول أن يعالجها بدقَّة، ويكشف السِّتَار عن مفهومها لديه، ويأتي بالأمثلة لها من تراث العرب الشِّعري، ومن هذا الكتاب تُستنبط آراؤه النَّقديّة، ومنهجه في ممارسة العمل النَّقدي.

وأول ما يلفت الأنظار حول منهجه:

١- أنَّه لم يعتنِ بتقسيم كتابه إلى فصول أو أبواب، أو حتَّى أجزاء، وإنما

أَتَـى بمطارحاته النَّقديَّـة عَلَى غَيرِ نِظَام معهود، ولا أسـلوب مألوف في التأليف، فَجَاءَ وكأنَّه وجهات نظر في عدة عناصـرٍ فنية في العمل الشِّـعري وليس أكثر من هذا، ويمكن - من خلال النَّظر في فهرس الكتاب - تقسيمه قسمين: الأول يخصُّ مصطلحات نقديّة تتعلق بفنيّات الشّعر، والثّاني يخص عناصر الإبداع الشِّعري.

٢- ومـن منهجـه أيضًـا: أنه يأتي بمصـطلحين نقديَّين مقترنـين، قد يكون بينهمـا توافق وقـد لا يكون، ثم يأخـذ في التَّعريف بكلٍّ منهمـا، وتحديده وتمييز مفهومـه الدَّقيـق عَمَّا يقترب منه[١]، وذكر أقسـامه إن كان له أقسـام[٢]، ودوره في الارتقاء بالإبداع الشِّـعري، ممثِّلاً على هذا من شعرِه ومن شعر غيره، إلى أن ينتهـي منه، فيأخذ في التَّعريف بالمصـطلح الثّاني، وهكذا مـن أول الكتاب حَتَّى يصـل إلى ما سمَّاه بأدوات الشِّعر (عناصر الشِّـعر)، فيذكرها إجمالاً، ثم يقف عنـد كلِّ أداة وأهميتها، ذاكرًا أمثلة جيدة لمن أجاد توظيفها، وأمثلة رديئة لمن لم يحسن هذا التَّوظيف أو تجاهله.

٣- ومن منهجه أيضًـا: التَّطرق إلى شـرح الكلمات الغريبة التي يجنح إليها في كلامه، وكأنَّ كلامه مَتْنٌ، بيد أنَّه يشرحه في متن الكتاب، وليس في طُرَّته[٣].

٤- ومن منهجه كذلك في رصـد مطارحاته النَّقدية: إثبات تعريفات متعددة لبعض المصـطلحات نقـلاً عن أعـلام النَّقد السّـابقين من أمثـال: (قدامة بن جعفر) وغيره[٤].

٥- ومن منهجه: الإكثار من الأمثلة دون شـرح أو تفصـيل، وهذا لا يمنع من احتـواء الكتاب على شـرح تطبيقي، ولكنه في حدود ضـيِّقة، بـل إن (ابن أفلح) تجاهَلَ تعريف بعض المصطلحات، مُكْتَفِيًا بذكر أنواعها أو أقسامها، ربما لوضوح معناها كما في التَّشبيه[٥].

٦- ومن منهجه: الاهتمام الشَّديد بالتَّفرقة بين المصطلحين اللَّذَين يظَنُّ أنَّ معناهما واحد، أو قريب من بعضـه، كما في تفرقته بين المدح والشُّكر[٦]، والهجو والـذَّم[٧]، والولع والهمز[٨]، واللَّوم والعَتْب[٩]، والهزّ والاسـتزادة[١٠]، والتَّنَصُّـل

والاعتذار [١١]. وكأنِّي به يتناول أغراض الشِّعر ولكن تحت أسماء غير مألوفة، إذا يذكر لكلِّ مصطلح تَعريفًا مُوجزًا مَشفوعًا بأمثلة غزيرة لشعراء مختلفين من ديوان الشِّعر العربي[١٢]. وقد يخلو هذا الاستغراق اللُّغوي من لمسات نقدية، حيث اقتصر فيه المؤلف على تحديد المصطلح وإزجاء النماذج له، وقد شغل هذا من ص١٥٢ - ١٨٠، وهذا مثال من معالجته: «التّنصل: يكون من الوشاية والكذب، والاعتذار يكون من الجناية والكذب»[١٣]. ولعل الجديد في طرحه يَتَمَثَّل في دعوته الصَّريحة إلى الاهتمام بعلم المصطلح، وهو ما اهتمَّ به النُّقاد في العصر الحديث اهتمامًا ملحوظًا.

٧- ومن منهجه: خلطُ مسائل علم البيان بمسائل علم البديع، وكأنّ فكرة عدم الفصل بينهما كانت مسيطرة عليه، كما سيطرت على (ابن المعتز) من قبله، أو كأنَّ مفهوم البديع لديه هو كل شيء طريف يُبتكر لأول مرة كان مستحوذًا على فكره النقدي، والدَّليل على هذا أنَّه عالج موضوع التَّضمين والتَّطبيق[١٤] وهما من عناصر علم البديع بعد تناوله لعنصر بياني مهم، وهو التشبيه[١٥]. وهذا الأمر يثير في نفسي الشَّك من أنَّ اسم الكتاب هو **البديع**. ويؤكد هذا قول المحقِّق إنَّ هذا الكتاب بهذا العنوان لم ينسبه إليه أحد من العلماء. وأميل إلى أن عنوان هذا الكتاب هو **مقدمة ابن أفلح** التي اعتنى بها العراقيون عناية فائقة على ما ذكر (ابن الأثير ت ٦٣٨ هـ) في كتابه[١٦]. أما عُنوان البديع، فأرى أنه تَسَرَّب إلى غلاف هذا الكتاب؛ لأنَّه ورد في مخطوط واحد مع كتاب **المحاسن في النَّثر والنَّظم** لأبي الحسن المرغَيناني، وهو كتاب وضعه صاحبه في البديع خصيصًا، والمخطوطتان لدَيَّ، وكنتُ بصدد تحقيقهما، ولكن صُرفتُ عن ذلك لسبق تحقيقهما. ومن هنا أرَجِّح ما ذهب إليه (فان جلدر) من أن كتاب (ابن أفلح) هو المقدِّمة، أما قول الأستاذ (إبراهيم صالح) محقِّق كتاب **البديع**: إنه وقف على نصٍّ في كتاب (ابن الأثير) غير موجود في **البديع**[١٧] فليس دليلاً كَافيًا على عدم اعتبار أن هذا الكتاب هو **المقدّمة**. ثمَّ إنَّ محتوى الكتاب يقطع بالعنوان الأخير؛ ففيه رصد لعناصر الشِّعر، وكأنَّه يشبه كتاب مقدمة في صناعة النَّظم والنَّثر لشمس الدّين النّواجي (ت٨٥٩هـ). هذه وجهة نظر متواضعة.

٨- ومن منهجه: التركيز على التَّمثيل بأمثلة غير متداولة في كتب السَّابقين، وميله إلى الاستشهاد بأمثلة معاصريه، والاستشهاد بأمثلة من شعره هو مع نسبتها لبعض المحدثين، وقد أثبتُّ – في بحث آخر- أنَّه يقصد نفسه.

هذه هي أبرز ملامح منهجه النَّقدي. أما عن الموضوعات النَّقدية التي عالجها في كتابه؛ فهي: التَّشبيه، تشبيه التّمثيل، تشبيه الحسِّ والتّخيل، تشبيه التعظيم والتَّكثير[١٨]، وقوع التَّضمين ومباينة التطبيق[١٩]، مشاكلة التّجنيس وخلوص السَّبك[٢٠]، موافقة التَّجنيس وحُسن المخلص[٢١]، حدَّة الاستطراد وحلاوة الاستعارة[٢٢]، الاستعارة في صناعة الشعر[٢٣]، نظافة الحشو ونصوع التّرصيع[٢٤]، اتِّزان التَّسميط إلى مثله وتقابل النَّظر في المعنى إلى مثله[٢٥]، تكرير الإشارة والغلوّ في المبالغة[٢٦]، وسأعود إليها لأبين وجهة نظره فيها.

ويمكن - كما ذكرت سلفًا - اعتبار هذه الموضوعات قسمًا، حيث إنها مصطلحات نقديّة، تؤدي مراعاتها إلى إسباغ أمارات التشكيل الجمالي على الفَن الشِّعري.

ثم تطرَّق النَّاقد إلى ما سَمَّاه بأدوات الشاعر، فأتى على ذكرها إجمالاً[٢٧]، ثم تناولها بالشَّرح والتَّمثيل في الصَّفحات التالية إلى آخر كتابه. وأدوات الشِّعر عنده هي: النحو، والتَّصريف، واللُّغة (المعجم الشِّعري)، والعَروض والتقطيع، ومَلَكَة الحفظ (أي الإكثار من حفظ الأشعار)، والأُنس بالسِّيَر (أي قراءة التّاريخ، ومعرفة رجاله، وتدبُّر أحداثه، واستخلاص الأمثال والعبر من أطواره)، وصحّة الانتقاد (أي صفاء ذوق الشاعر، ومهارته الفنيّة، ودقة رؤيته وفكره في شعره قبل أن يعرضه على المتلقي)، ثم أثبتَ الناقد بعد هذه العناصر عدة مصطلحات أرى أنها تندرج تحت صحة الانتقاد، منها: إشباع المعنى بغُفَّة (بقليل) من اللفظ، وإبرازه في ثوب قشيب من البلاغة، وترابط الأبيات، وملاءمة أعجازها لصُدُورها، وردِّ أعجازها على صدورها، والحذق في الوقوف على الفروق اللُّغوية؛ خصوصًا بين المصطلحات التي أمعن في التَّفرقة بين معانيها، وقد ذكرتها آنفًا.

قال (ابن أفلح) عن بعض عناصر الشّعر وأدوات الشاعر، مبيِّنًا أهميتها ودورها: «وللشّاعر أدوات: متى أعوزه شيءٌ منها كان كالمبارز الأعزل والمجاري الأرجل؛ كالنّحو: الذي هو قوام اللِّسان، وزِينة الإنسان، ورونقُ العبارة، ومبين الوصل من القطع، والفارق في القوافي بين الخفض والرفع، ومن المتمكن والمعتل والمبني والمنصرف، وهذه ضرورات لا يستقيم الشِّعر إلا بها؛ دَعْ تهذيبَ اللفظ بالإعراب وتزيين المنطق بالصَّواب.

ولغة العرب، التي الشِّعر اسمٌ هي معناه وطِفْلٌ هي غِذَاه، فإنَّ بها يَتَّسِعُ مجاله، ومنها يُعَزَّزُ مَقَالُه وإليها مَآلُه.

والتَّصريف: الذي هو تفصيل الجملة وحلُّ المشكلة، وعاضد الشاعر، وفارج ضيق المُنَاظِر.

والعَرُوض: التي هي ميزانُ الشِّعر وطَبَّارُهُ، وعليها مَدارُه، وبها يُعرف صحيحُه من مَكْسُورِه، وخارجُه من مَطبوعه.

والتّقطيع: الذي هو رأسُ البضاعة وأصلُ الصِّنَاعة.

والإكثار من حِفْظ الشّعر: فإنَّها شاهِدُهُ العَادِلُ، وحُجَّتُه في كَعْمِ لِسانِ المجادِل.

والأُنس بالسِّيَر: التي فيها هداية إلى ضرب الأمثال، ومعرفة أقدارِ الرِّجال.

وصحَّة الانتقاد: فإنَّه يَحُلُّ من البَصير مَحَلَّ الجذْوَةِ من الزِّنَادِ.

ثم إشباع المعنى: بغُفَّةٍ من اللّفظ، وإبرازه في أبهى حُلَّة من البيان وإرداف البيت بأخيه، وملاءمة صَدْره بعجُزه، وردِّ العَجُز على الصَّدر، ومعرفة التَّبايُن بين السَّرقة والسَّلبِ، والتَّصارف بين السَّلخ والخَلْع، والتّمييز بين المدح والشُّكر، والفصْل بين الهجو والذَّمِّ، والبَوْن بين الوَلَع والهَمْز، والتَّفاوت بين اللَّوم والعَتْب، والفَرق بين الهزِّ والاستزادَة، والفصل بين التَّنَصُّل والاعتذار، والتَّرجيح بين التَّقَاضِي والإذكار»[٢٨].

إنَّ تناوله لأدوات الشِّعر، وصحّة الانتقاد من الأسس النَّقدية التي حاول الإفصاح عنها، والتَّأكيد أنَّه لا غنى للشّاعر عنها، فلا بدَّ من الحرص عليها وإتقان هذه المؤهلات، والحذق في توظيفها، والمهارة في تطويعها بمرونة واقتدار حتى يُؤتي الفَنُّ الشّعري ثمارَه ناضجة. ولا نبالغ إذا قُلنا: إنَّه يسيرُ في ركاب مَن قَبْلَه، ويلفُّ لَفَّهم، ويحذُو حَذْوَهم، فكلُّ ما أفصح عنه أَتَى عليه السَّابقون، بدايةً من رُؤى الشُّعراء النّقدية في إبداعات الآخرين، مُرُورًا (بالأصمَعي) و(ابن سلام الجُمحي) و(ابن قتيبة الدينوري)، و(ابن المعتز)، و(ابن طباطبا العَلَوي)، و(قدامة بن جعفر)، و(الآمدي)، و(القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني)، و(أبي العلاء المعري)، و(ابن شرف وابن رشيق القيروانيين). وليس أدلَّ على ذلك من قوله عن ماهيَّة النقد مُستقصيًا نماذجَ نقدية من العصر الجاهلي حتى عصره: «فقد تقدم ذكر نقد الشعر وما قال فيه أهل الشعر، وأنَّ منهم من زعم أنَّ نقد الشعر أصعب من قوله. وقيل: إنَّ ناظم الشعر كحائك الثوب، يعلم مقدار ما دخل الثَّوب من غَزْلٍ في سَدَاهُ ولُحْمته، وما يلزمُه عليه من غَرَامَة، ويَعْرِفُ طولَه وعَرضَه ومُدَّة عَمَلِه، وناقد الشِّعر كالبَزَّاز الذي يبيع الثّوب ويستعملُه، فهو لكثرة مُلابَسَته للثياب، ومُدَاوَمَة بَيعه لها، ومُقَايَسة بَعضها من بعض؛ يَعرف منها الرَّفيع من الدُّون، والدَّقيق من الغَليظ، والرَّسْمِيَّ من الاستعمال، والذي له بقاءٌ على الكَدِّ من الذي لا بَقَاءَ له. فصناعة البَزَّاز غير الحائك، وكذلك صنعة نقد الشّعر غيرُ صَنْعَة نَظمه. وكم من قارض للشِّعر، حاذقٍ في نظمه يأتي فيه بالدُّرَّة والبَعْرة ولا يَستطيعُ التمييزَ بينهما، لِقلَّة معرفته بالنَّقد وصعوبته عليه»[٢٩].

فتشبيهُ النَّاقد بالصَّائغ أو الحائك أو الصَّانع أَتَى عليه النُّقَّاد السَّابقون - كما يعرف كثير من الدَّارسين - خصوصًا في مُقدمة الكتب: **طبقات فحول الشعراء** لابن سلام الجمحي، و**الحيوان** للجاحظ، و**الشعر والشعراء** لابن قتيبة. والنَّاظر في تأكيد النّاقد على الملاءمة بين الأبيات، وترابط أعجازِهَا بصدُورها بوسيلة أو بأخرى يجد أنّ هذا قد أفصح عنه الشّعراء الأمويون، وتَفَاخَرَ به بعضهم على بعض، كما هو معروف في قصّة (عمر بن لجأ التَّيمي)، المذكورة في كتب التراث، والمستشهَد بها في كتاب النّاقد[٣٠].

وقد ذكر (ابن أفلح) أُسُسًا أُخرى في كتابه، عدَّها من تمام ممارسة الإبداع الشّعري الجيد، وهي تتوزع بين علْمَي البيان والبديع، وليست من الكثرة بمكان، ولكنَّ الكثيرَ في كتابه حقًّا تلك النَّماذج الشّعرية التي كانت تَفْتَقِرُ منه إلى شَرْح وَتَطْبيق وإفصاح عن طَرائق تحقيق المعايير فيها من عدَمه، فقد أتى على الجناس مُسَمّيًا إياه بالتَّجنيس، وقد سبقه إلى ذلك (الثّعالبي ت ٤٢٩ هـ) في عنوان كتابه **أجناس التّجنيس**، فقال (ابن أفلح) في تعريفه: «هو أن يأتيَ الشاعر في البيت بكلام متَّفقة أكثر حروف ألفاظه، وبعضها مشتقٌّ من بعض، وقلَّما تستعملها العربُ في أشعارِهَا صَنْعَةً، إلا أنْ يقع اتفاقًا من غير قصد؛ وإنَّما المحْدَثون ابتدعوه، حِذْقًا منهم، وصناعةً في الشّعر؛ وألِفوه حَتَّى صار لقوم منهم طبعًا لا تخلو أشعارُهم منه كالطَّائيَّيْن أبي تمام والبحتريّ»[٣١].

فمعيار الجناس عنده الطبع السليم، وعدم التكلف، والانهماك في نسيان الغرض الأساس من العملية الإبداعية من أجل الحصول عليه والتلاعب به، وإظهارِ الاقتدار على تطويع اللُّغة، ولم يَحُطَّ النّاقد من قدر الجناس الذي يأتي عفوَ الخاطر دون قصد أو تعمُّد، وهذا ما طالب به جلَّة النُّقادُ مِنْ قَبْلِه. وأرى أنَّه ليس على صواب في إقران (البحتري) بـ(أبي تَمَّام) في هذا المضمار، فمعروف أن إيغال (أبي تمام) في المحسِّنات البديعيَّة أفضى به إلى مذهب التصنيع – كما سمَّاه شوقي ضيف – الذي أفسد شعره، أمَّا أسلوب (البحتري) فهو أسلوب الطَّبع العربي، وقد سماه بعض النُّقاد (السهل الممتنع).

ويعدلُ (ابن أفلح) بمصطلح التخلص في تناول النقاد السَّابقين إلى المخلص، ويطالبُ بما طالبوا به من ضرورة تحقيق الانتقال من معنًى إلى معنًى، أو من غرض إلى غرض في لطف وتحايل، حتى لا يشعر المتلقِّي بالقفز المفاجئ، وتفكُّك معاني أبيات القصيدة، فقال: «وحسن المخلص: هو الشَّاهد للشَّاعر بالحِذْق في صناعة الشعر، وتَرجمان الفضيلة والمرصد لعائبه وناقده»[٣٢].

ثم تناول المبالغةَ لدَوْرِها الظَّاهرِ في الإيضاح، وجذب الانتباه، فعرَّفها، وفرَّق

بينها وبين الإيغال قائلاً: «المبالغةُ في صناعة الشعر: أن يصفَ الشاعرُ الممدوحَ أو الشيء بأبعد غايات صِفَاته ... والغلو في المبالغة: أن يعطيه من الصفة ما تعجز طبيعتُه عنه، ولا ينتهي قوله إليه، فيكون ذلك غُلُوًّا في المبالغة»[٣٣]. هكذا يثبت التعريفين، مُوَشِّحًا إياهما بشواهدَ شعرية دون إثبات رأيه بالقبول والرَّفض لهما أو لأحدهما، أو الإشادة بهما. وقد فعل ذلك في عدَّةِ عناصر تناولَها في كتابه.

وتعرَّض للاستعارة تحت عنوان: «حدَّة الاستطراد، وحلاوة الاستعارة»، فعرَّفها قائلاً: «أن يجعلَ الشاعر للشَّيء ما ليس فيه، فتَتَّسع عليه العبارة، ويزدان بذلك اللَّفظ، ويروق به المعنى؛ فقد قيل: من العبارة حسنُ الاستعارة»[٣٤]. ثم أتى بشواهدَ شِعْرِيّةٍ، عَلّقَ عَلى قليلٍ منها بجملٍ لا تُسمِن ولا تُغْنِي من جوع؛ إذ لا تفصح عن مقياس جودتها ورداءتها. وأين تعبيره من تعبير (المرزوقي) الواضح في صياغته لعمود الشِّعر، حينمَا اشترَط في الاستعارة الجيِّدة أن تكون قريبة واضحة؟ ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ (ابن أفلح) اهتمَّ بالاستعارة، وأدرك أنَّ لها دورًا خطيرًا في الإبداع الشعريّ شكلاً ومضمونًا، فلم ينسَ أن يُدرِجَ مصطلحها وشواهده في كتابه.

ويعتبر الاستطرادُ من الأسس النَّقدية التي كان لها صدًى في تناوله، وفي حديثه عنه طالَبَ الشاعر أن يعرف قدرَ طاقته الشّعرية، فلا يسلك طريقًا أكبر من موهبته، فتزلَّ قدمُه، وتَتَهَاوَى مَكَانتُه، في حين أنّه في غِنًى عَن هذا، ولم يُلزمْه أحدٌ بسلُوكِ هذا المسلك الوعر، «فالاستطرادُ في الشّعر: أن يكونَ الشاعر آخذًا في ذكرِ شيء، وهو يريدُ ذكر شيء آخر من غير انقطاعِ الكَلام بينهما بفاصل، فإن جاءَ الاستطراد (جادًّا) دَلَّ على حِذق الشاعر، فإن جاء مقلقَلاً أو عرَتْه رِكَّة دَلَّ عَلَى تقصيره ... وللاستطرادِ في نظم الشِّعرِ موضعان أكثر ما يوجد فيهما ويليق بهما؛ أحدهما في التّشبيه، والآخر في المخلص» [٣٥].

ومن الأسسِ التي دعا إليها: السَّبك، ومعياره عند النَّاقد خلوص السَّبك، أي خلوص الأسلوب من الحشو، فتكون الألفاظ جميعها محتملة لمعنى البيت،

بحيث إذا نقصت لفظةً تَخَوَّنَتْ معَنى البيت عاهة، إضافة إلى سلاسة الأسلوب وطواعية الألفاظ وسلامتها من العيوب المخلة بفصاحتها، فـ«خلوص السَّبك: هو أن يكون المعنى في البيت محتاجًا إلى لفظه جميعه غيرَ مستغنٍ عن كلمة منه تأتي حشوًا أو يتمِّم بها الشاعر نظم البيت بعد أن يتمَّ المعنى فيه من غير افتقار إليها إذا اعتبر بالنقد؛ وتكون الألفاظ رائقةً مُهَذَّبة؛ إما سهلة ممتنعة أو جَزْلَة طيِّعة، لا تعتورها ركاكةٌ ولا تَعلوها فضاضةٌ، وذلك هو الشّعر»[٣٦] .

وعكسُ هذا السَّبك الحشو، وهو من العيُوب التي حثَّ النَّاقد على تخليصِ الشِّعر منها بتخليصه من الألفاظ الزَّائدة التي لا طائل تحتها، فمثل هذه الألفاظ سمَّاها النَّاقد حَشْوًا، وأكَّد على ضرورة تهذيب الشّعر، وتنقيته من هذه الآفة، يَتَّضِح هذا من قوله: «الحشو في صناعة الشِّعر: هو أن يأتي الشاعر بمعنى في بيت يكمل المعنى بدون لفظه، ويحتاج إلى إتمام نظم البيت بلفظة أو لفظتين حتى يلحق بعروضه ووزنه؛ فيسمَّى ما يتمم به البيت حشوًا؛ لأن المعنى استكفى من قبل إتمام البيت، فصار ما فضل عن المعنى من اللفظ حشوًا»[٣٧].

ومن الأسس الجماليّة في المطارحات النّقدية لديه: التَّرصيع، والتَّسميط، ومعيار الأول النُّصوع، والتَّفنن في توظيفه، بحيث يأتي في البيت لافتًا للأنظار، جاذبًا للعقول، وهذا النُّصوع يأتي «على ضربين: أحدهما: أن تكون الكلمتان اللتان في آخر البيت مُتَّفِقَتي الحروف ماعدا حرف الرَّوي وحده، وربما اتفق أن يقع حرف الرَّوي زيادة في الكلمة الثَّانية. والآخر: أن يقع الاتفاق في حروف كلمتين في البيت غير متواليات، بل تقع كلمة في صدر البيت والأخرى في عجزه، أو تقع كلمة في وسط البيت والأخرى في القافية، ويختلف من حروف الكلمتين حرف واحد، فَيُسَمَّى ذلك: التَّرصيع في صناعة الشعر»[٣٨] .

ومعيارُ التَّسميط الاتِّزَان؛ أي التَّوازن والاتِّساق في تقطيع البيت، وعَرَّفه النَّاقد بـ«أن يقطِّع الشاعر جميعَ البيت موزونًا مقفًّى على رويٍّ واحد، حتى ينتهي

إلى آخره إلى رويِّ القصيدة، أيَّ وزن كان، فيجعلَ التسميطَ الآخِرَ من البيتِ على ذلك الروي»[٣٩].

ومن الأُسس النَّقدية التي عالجها (ابن أفلح) في ممارسته لنقد الشِّعر: الإشارة، ويعني بها الرَّمز عند قصور الألفاظ عن التَّعبير عن المراد، ومقياس جِدَّتها عنده يكمن في بعدها عن الرِّكة والقوة والجدّة، قال (ابن أفلح): إنها تأتي «على ضربين؛ أحدهما: أن يقصد الشاعر معنًى، فيأتي به في لفظ يقصر به عن استكماله، فيُسَمَّى ذلك إشارة ... والضَّرب الآخر: هو أنَّ الإشارة هي الإيماء في صَنْعَة الشِّعر إلى الشخص المخاطب والمعاين، وهي مستجلاة وإذا تَكَرَّرَتْ في الشِّعر إلى الممدوح أو المخاطب والمعاين، وكانت مع تَكرارها جادة لا يمازجُها فُتورٌ ولا رِكَّة، أبانتْ عن قُدرة الشاعر عَلى الكَلام وحذقه في النَّظم»[٤٠].

ومن تلك الأسس: التَّوجيهُ، وهو «أن يأتي الشاعرُ في نظم البيتِ بلفظ يشيرُ به إلى المعنى الذي هو آخذٌ فيه، وفي ذلك اللَّفظ إشارةٌ إلى معنًى آخر، وكِلتا الإشارتين يَقَعَان في وقوعهما بلفظٍ واحد»[٤١].

شعر ابن أفلح في مرآة منظوره النَّقْدي:

ألَّفَ (ابن أَفلح) كتابَه الموسوم بالبديع، وضمَّنه بعضَ وجهات نظره فيمَا ينبغي أن يكونَ عليه فن الشعر شكلاً ومضموناً، كما مَارسَ الإبداع الشِّعري، فنَظَمَ غَيرَ قَليلٍ من النُّتَف والمقطَّعات والقَصَائد، كانتْ مُدرجَةً في ديوانه المفقود، ذلك الديوان الذي جمعه وكتبَ مقدمته بنفسه، وأثبتَ في نهاية كتابه **البديع** نَصًّا طَويلاً، قال عنه الأستاذ (إبراهيم صالح): إنَّه يصلح أن يكونَ مقدّمة ديوانه، ورجَّح هذا.

وأحاول هنا تلمُّسَ أبعاد امتثاله لآرائه النَّقدية في قرض الشِّعر، فأوَّل ما يلزم التَّذكير به هنا أنه لم يخرج عن القدماء في مطارحاته النقدية، فقد لَفَّ لَفَّهم، ودار في فَلَكهم، وإنْ صاغَ مطارحاته بأسلوبه هو، وحاول أن يمثِّل لكلِّ قاعدة بأشعارِ غيره، مع إيثار الاستشهاد في ختامِ كلِّ موضوعٍ بأبياتٍ من شِعرِه

مع إخفاءِ أنَّها له، وذلك بنسبتِهَا إلى بعضِ المحدَثين، وقد انكشفَ أمرُه ، فأثبتُّ - كما ذكرتُ من قبل- أنَّ هذه الأَشْعارَ له، وهذا يؤكِّد أنّه ألَّف كتابه بعدما تقدَّم به السِّـن، وهي لا شَـكَّ متحقِّقٌ فيها ما ذهب إليه من وجهات نظر نقدية؛ إذ هي شـواهد، لذا لا بُدَّ أن تَتَّسـق مع تلك الوجهات، هذا أمر ينبغي لفتُ الأنظار إليه، أما بقية أشعاره الأخرى، فلا تبتعدُ عن هذا الأمر كثيرًا، فقد كان الرجل شاعرًا موهوبًـا، على قدر عالٍ من التَّمكُّن من مؤهلات الشـعر، لا سـيما مفردات اللغة التي يقتدر على توظيفها اقتدارًا، ويطوِّعُها للنَّغَم الشـعري تطويعًا، فقد كانت له وجهة نظر في الأسـلوب، فرأى لزوم تخلُّص الأسلوب من الحشو، فتكون الألفاظ جميعُها محتملةً لمعنى البيت، بحيث إذا نَقَصَتْ لَفْظَةً تَخَوَّنَت معنى البيت عَاهَةٌ، إضـافة إلى سلاسـة الأسـلوب وطواعية الألفاظ وسـلامتها من العيـوب المخلَّة بفصاحتها[٤٢]، وهذا الأمر مُتَحَقِّق في قوله[٤٣]:

أنسيتَني يـومَ العَقيقِ ونحنُ في	واديـهِ بين السَّرْحتيْنِ حُلولُ
والحَيُّ يهمزُ بالرَّحيل ومُهجَتي	جزَعًا لمقتَرِبِ الرَّحيلِ تَسيلُ
والوَجْدُ مُحْتَدِمٌ وبين أَضَالعي	قَلبٌ يَضِجُّ به الغَرَامُ عَليلُ
وأقلُّ مَا لاقيتُ من كُلَف الهوَى	بعدَ الصَّبابةِ لائمٌ وعَذُولُ
ألاَّ اقتَدَيتَ بحُوَّلٍ في وجده	قَد عَارَكَ الأَشْجَانَ وهْوَ نَحيلُ
أظننتَ أنّ العِشْقَ سَهْلٌ بِئْسَ مَا	أُوهِمْتَهُ يَا أيُّها المخبُولُ
يا أختَ سَعد قد سَنَنْتِ شَريعَةً	مَا سَنَّها في الأنبياءِ رَسُولُ
حَلَّلْتِ سَفْكَ دَمي ولم ينطقْ بِهِ	ذِكرٌ وتَوْراةٌ ولا إنجيلُ
وقَصَرتِ أَجْفَاني فَمَا إن تَلْتَقي	وأَطَلْتِ لَيْلِي فَالعَناءُ طَويلُ

فيبدُو هنا تماسكُ الأسلوب، وحسن سبك الأبيات، وجزالةُ ألفاظها، وتخليصُ الشعر من الألفاظ الزائدة دون فائدة، فكل لفظة لها وظيفتها في بيتها، لا سيما كلمات القوافي ذات العذوبة الظَّاهرة، والوقع الطَّيب، مع ابتعادِ ألفاظ

هذا الشـعر عَمَّا يخل بفصاحتها، ومع حرص الشـاعر على التَّنويع الأسلوبيِّ بين الخبر والإنشاء، وهذا حال الشاعر في كلِّ شعره.

واحتفى (ابن أفلح) في رؤيته النَّقدية بالتصـوير الشعريِّ تشبيهًا واستعارة، غير أنّه لم يتجاوز أنواع التَّشبيه إلى إثبات وجهة نظره في الجيّد منه والرّديء في أسـلوب واضح، بيدَ أنَّ ذكره لهما يشير إلى إدراكه لقيمتهما في الإبداع الشعريّ، ومن ثم احتفى بهما في شعره، فجاء مُزْدَانًا بالصُّور الواضحة واللَّوحات اللألاء، التي تمتَّعـتْ بالخطوط الدّقيقة والألـوان الباهية، والتفاصـيل الزّاهية، واتكاؤه على التّشـبيه في تصـويره الشعري أكثر من اتكائه على الاسـتعارات، وتشبيهاته دقيقة تكشـف عن غرضـه، وتؤكِّد معناه، واسـتعاراته قريبـة لا غموض فيها ولا إبهام، فمن صوره التشبيهية: قوله مشبهًا الأبواب الموصدة بجفون الأعمى[٤٤]:

قَد أَيِسَ الطَّارِقُ مِن فَتْحِهَا كَـأَنَّـهَـا أَجْـفَـانُ عُـمْـيـانِ

وقوله[٤٥]:

وقَـضِـيـبًـا كـقـضـيـبِ الـ ـبـانِ يمـشِـي في اعـتـدَالِ

ومن صوره الاستعاريّة قوله [٤٦]:

تَطيرُ طُيورُ المكْرُمَاتِ سَوانِحًا فَيقْنِصَهَا مِن جُودِ كَفَّيْهِ جَارِحُ

فقد جعل مَكرُمات الممدوح طيورًا مسـالِمة، وجعل من المعتفين طُيورًا جارحة تَفترسُ الطُّيور المسـالمة، وهذه اسـتعارة بارعة، دَلَّتْ على انتشـار كرم الممدوح، وتحليقه مسالمًا في الآفاق.

ومن صوره الاستعارية أيضًا قوله[٤٧]:

تُـرْدِي الكَتَائِبَ كُتْبُه فَكَأَنَّما في كـلِّ سَـطْـرٍ مِـقْـنَـبٌ وَرَعِـيـلُ

فقد جعل مِمَّا تُسَطِّرُه يدُ الممدوح جيوشًا، تهزم كتائب أعدائه.

وتناول (ابن أفلح) حسن التَّخلص في الشعر، وحثّ عليه، وذهب ما ذهب إليه القدماء في هذا نقدًا وإبداعًا شعريًّا، كما في قوله[٤٨]:

يا صَاحبيَّ مَضَى الهَوَى لسَبيله ... وأتَى الصوابُ وقولُه المقبولُ
أبْثُثْكُمَا عُجَري فَمَا تَرَيانه ... لأَخيكُمَا؟ فَالرّأيُ منْه أَفيلُ
طَالَ الثَّواءُ عَلَى المذلَّة قَانعًا ... بالدُّون واستَوْلَى عَلَيَّ خُمُولُ

فقد تخلَّص في لطف وتحايل من هجر المحبوب إلى تجاهل الممدوح، كما أَحكَمَ حُسْنَ التَّخلص، فحاول أن ينتقل من حسرته على مَاضي شبابه إلى حسرته على خيبة أمله في ممدوحه، كما في قوله[٤٩]:

يا زَمَانَ الصِّبَا سَقَى عَهْدَكَ اللـ ... ـهُ وأَيَّامَكَ الخَوَالي العَهْدَا
لَسْتُ أَنْسَى أَيَّامَكَ البيضَ والـ ... ـبيضُ يُفَدِّينَ مَفرْقي المُسْوَدَّا
أَوْ يقالَ: السَّماءُ صَافَحَتِ الـ ... أرضَ وَرَاجِي الإمَام خَابَ وَأَكْدَى

واهتمَّ كذلك بالتَّوجيه، فعرَّفه «بأن يأتي الشاعر في نظم البيت بلفظ يشيرُ به إلى المعنى الذي هو آخذٌ فيه، وفي ذلك اللَّفظ إشارةٌ إلى معنًى آخر، وكلتا الإشارتين يَقَعَان في وقوعهما بلفظ واحد»، ومعياره كما قال الموافقة[٥٠]. ومن شعره المتضمِّن هذا العنصر الفَنِّي قوله[٥١]:

إذا كانَ مَوتي بِقَتْلِ الجُفُونِ ... فقتلُ السُّيوفِ إذًا أَرْوحُ

وعقَّبَ على هذا البيت بقوله: «الإشارة هاهنا إلى جفون الحَدَق، والتَّوجيه يحتمل أن تكون الإشارة إلى جفونِ السَّيف أيضًا، حيث ذكر السُّيوف، والقتل أروح من التَّعذيب بجفونها». فنلحظ الموافقة هنا بين الجفون والسُّيوف.

ورأى (ابن أفلح) أن للتَّرصيع أهميةً في الإبداع الشعري، فأتى على ذكره في كتابه، وذكر قسَمَيه. وهذا يدلّ على اقتناعه بدوره في إسباغ أمارات التَّشكيل الفنِّي والجمالِيِّ على الشعر، لذا لم يهمله في شعره، بل حاول الإكثار منه في

أبياته، من ذلك قوله[٥٢]:

وعَزْمٍ ظُبا الهنديِّ دُونَ مَضَائِهِ يَقُدُّ ويَفْرِي فِي الدَّوَاهِي الدَّوَاهِمِ

فالترصيع هنا واقع في نهاية البيت بين الكلمتين الأخيرتين، وغير خافٍ مَا بهما من جناس ناقص أيضًا.

ومنه أيضًا قوله[٥٣]:

سَأَلْتُكَ التَّوقيعَ فِي قِصَّتِي فاحتَطْتُ لِلآجِلِ بالعَاجِلِ

وتناول التَّسميط، وهو عنده تقطيع البيت وزنًا وقافية، وكأنِّي به يؤكد على القيمة الجماليَّة لهذا العنصر، فهي تزيد الشعر حلاوة في الإيقاع ووضوحًا في المعنى، ومن التَّسميط الذي حقَّقه في شعره قوله[٥٤]:

بَعِيدُ الخَنَا، وارِي السَّنَا، يَانِعُ الجَنَى طَوِيلُ الغِنَى، أَضْحَى عَلى المُلْكِ قَيِّمَا
وَثِيقُ العُرى، سامِي الذُّرَى دَائِمًا تُرى ذَخَائِرُه العُظْمَى حُسَامًا ولَهْذَمَا
فَسِيحُ المَدَى، جَمُّ النَّدَى، باسِطٌ يَدَا قَلِيلُ الفِدَا، إن صَالَ حَسَّ وَأَيْتَمَا
شَدِيدُ القِرَاعِ واسِعُ البَاعِ صَادِقُ الـ ـمِصَاعِ، إذا مَا أَمْضَى وَتَمَّمَا

فنلحظ أنّه قطَّع الأبيات تقطيعًا متوازنًا، سَاعد على إيضاحها، وحلاوة إيقاعها.

ويبدو من كتابه اهتمامُه بفنِّ البديع، فذَكَر الطِّباق والمقابلة، والجناس، ووظَّف هذه العناصر في شعره تَوظيفًا محكَمًا، وأسوق الأبيات الآتية لنقف عَمَّا بها من آيات الفَنِّ، وجماليات الإبداع،

قال (ابن أفلح)[٥٥]:

لله أحبابٌ نَأَتْ بِهِمُ أَيدِي النَّوَى فَفِرَاقُهُم جَلَلُ

بَـعُـدُوا فَـدَمْـعُ الـعَـينِ مُـنْـهَـمِـلٌ وَنَـــأَوْا فَـنَـارُ الـشَّـوقِ تَشْـتَـعِـلُ
هَــذَا وَمَــا بَـعُـدَتْ مَـسَـافَـتُـهُـمْ إِذْ قَـرَّبُـوا لِـلـبَـيْنِ وارتَحَـلُـوا
رَحَـلُـوا وَلَـكِـنْ فِي الـفُـؤَادِ ثَـوَوْا فَـكَـأَنَّـهـم رَحَـلُـوا وَمَـا رَحَـلُـوا

فنلحظُ في هذه الأبيات تراكم المحسِّنات البديعيَّة، بالإضافة إلى الاستعارة في البيت الأول، حيث جعل للنَّوى يدًا، وفي البيت الثاني تسميط بين شطريه كما سمَّاه هو، وفي البيت الثَّالث طباق بين قرَّبوا وارتحلوا، وفي البيت الرابع ردُّ العَجُز على الصّدر، بين أول كلمة وآخر كلمة، بالإضافة إلى طباق السَّلب بين رحلوا وما رحلوا. إن هذه المحسِّنات تدلُّ على إيمانه العميق بدورها في الارتقاء بالإبداع الشعريّ؛ لذا كان حريصًا عليها تنظيرًا في نقدِه وتوظيفًا في شعره.

ومن الطِّباق قوله[٥٦]:

إِني وحـقِّـكَ مُـنـذُ ارتَحَـلْـتَ نَـهَـارِي حَـنِـينٌ ولَـيْـلِـي أَنِـينُ
ومَـا كُـنْـتُ أَعْـرِفُ قَـبْـلِـي امـرءًا بِـجِسْـمٍ يُـقِـيـمُ وقَـلْـبٍ يَـبِـينُ

فالطِّبـاق ظاهر في البيت الأول بين النهار والليل، وفي البيت الثاني بين يقيم ويبـين، وهذه الفنون البديعيَّة لا شـك تُسـاعد على إيضـاح المعنـى وتأكيده، عن طريق لَفتِ الأنظار بذكر الشَّيء وضدِّه.

وطالب (ابن أفلح) بضـرورة إيراد المعنى في ثوب من البيان الواضح، بعيدًا عن التَّعقيد، وتداخل الأسلوب، وغموض المعنى، وغياب الفكرة، وقد حقق هذا في كلِّ شعره[٥٧]، من ذلك قوله[٥٨]:

مَـالِي وفِكْـرِي فِي الـعَـوَاقِـبِ بَـعْـدَمَـا أَيْـقَـنْـتُ أَنَّ عَـلَـى الـمَـنِـيَّـةِ مَـقْـدَمِـي
وَإِذا الأَنَـامُ تَـوَارَدُوا حَـوْضَ الـرَّدَى فَـالْـمُـقْـدِمُ الـهَـجَّـامُ مِـثْـلُ الْـمُـحْـجِـمِ
عَـجَـبِـي لِـمُـنْـطَـلِـقِ الـيَـدَيْـنِ مُـمَـكَّـنٍ مِـن سَـيـفِـهِ ويُـرَى بِـعَـيـنِ الْـمُـعْـدَمِ

فالمعنى واضــحٌ، والألفاظ بعيدةٌ عن الغرابة، والأسلوبُ سَلِسٌ، وكلُّ هذا أدَّى إلى ظُهور فِكرةِ الشاعر، وهدفه من نظم هذه الأبيات.

وخلاصــةُ القَول إنَّ الشــاعر حقَّق كثيرًا من الأُســس النَّقديَّــة التي أتى عَلى ذكرها في كتابه **البديع**؛ إما إعجابًا بها وإما تقعيدًا لها.

وفي نهاية المطافِ يمكن القول بأنَّ هذا البحث قد توصَّــل إلى بعض النَّتائج، منها:

١- أنَّه سَلَّطَ الأضواء على أحدِ مُبْدِعي القرنين الخامس والسادس الهجريَّيْن، كان له باع طويلٌ في الإبداع الشعري، وكانتْ له قدمٌ راسخةٌ في الممارسة النّقديّة.

٢- يُعَــدُّ هذا البحثُ دَعوةً إلى التَّنقيب في تاريخ الأدب العربي عن الشــعراء النُّقَّاد لمتابعةِ دراســة نتاجهم الأدبيِّ للوقوف على أبعاد امتثالهم في أشعارهم لِما نَادَوا به في مطارحاتهم النَّقديّة.

٣- كشــف هذا البحثُ عن أبرز سمات شــعر (ابن أفلح)، ورَصَد أهمّ أُسُس النَّقد لديه.

٤- ســعى البحثُ إلى النَّظر إلى شــعر الشــاعر مــن خلال رؤيتــه النّقديَّة، وتَوَصَّل إلى أَنَّه راعى في إبداعه الشعري تحقيقَ بعض مَا أثبتَه في خطابه النَّقديّ.

الهوامش:

(*)**كلية الآداب. جامعة الطائف.**

(١) ينظر كتاب **البديع** ٧٨.

(٢) ينظر السابق ٦٩، ٧٨، ١٠٤، ١١٣، ١٤٠ .

(٣) ينظر السابق ٦٢، ١٢٩.

(٤) ينظر السابق ٨٢، ١١٣.

(٥) ينظر السابق ٦٩.

(٦) ينظر السابق ١٥٢.

(٧) ينظر السابق ١٦١.

(٨) ينظر السابق ١٦٨.

(٩) ينظر السابق ١٧١.

(١٠) ينظر السابق ١٧٢.

(١١) ينظر السابق ١٧٤

(١٢) السابق ١٥٢ – ١٨٠.

(١٣) السابق ١٧٤.

(١٤) ينظر السابق ٧٨.

(١٥) ينظر السابق ٦٩.

(١٦) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ٥٩/١.

(١٧) ينظر كتاب **البديع** ٢١.

(١٨) ينظر السابق ٦٩ – ٧٥ .

(١٩) ينظر السابق ٧٨.

(٢٠) ينظر السابق ٨٧.

(٢١) ينظر السابق ٩٣.

(٢٢) ينظر السابق ٩٦.

(٢٣) ينظر السابق ٩٩.

(٢٤) ينظر السابق ١٠١.

(٢٥) ينظر السابق ١٠٨.

(٢٦) ينظر السابق ١١٣.

(٢٧) السابق ١١٨ – ١١٩.

(٢٨) السابق ١١٨ – ١٢٠.

(٢٩) السابق ١٢١، ٧٣ – ٧٨، وغيرها كثير في كتابه.

(٣٠) السابق ١٣٣، وينظر ما بهامشه من مصادر.

(٣١) السابق ٨٧.

(٣٢) السابق ٩٤ .

(٣٣) السابق ١١٦.

(٣٤) السابق ٩٩.

(٣٥) السابق ٩٦- ٩٧ .

(٣٦) السابق ٨٨ .

(٣٧) السابق ١٠١.

(٣٨) السابق ١٠٤، والترصيع عند قدامة بن جعفر هو: «تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف» . **نقد الشعر** ٨٠.

(٣٩) **البديع** ١٠٦.

(٤٠) السابق ١١٣ – ١١٤.

(٤١) السابق ٩٣ .

(٤٢) السابق ٨٨ .

(٤٣) القصيدة رقم ١٩.

(٤٤) المقطَّعة رقم ٣٦.

(٤٥) **مجموع شعره** ص ٥٣.

(٤٦) **البديع** لابن أفلح ١٠١ .

(٤٧) **مجموع شعره** ص ٥٠.

(٤٨) **مجموع شعره** ص ٤٩.

(٤٩) **البديع** لابن أفلح ٩٦.

(٥٠) السابق ٩٣.

(٥١) السابق ٩٤ .

(٥٢) السابق ١٠٦.

(٥٣) النُّتفة رقم ٢٤.

(٥٤) **البديع** لابن أفلح ١٠٨.

(٥٥) المقطَّعة رقم ٢١.

(٥٦) المقطَّعة رقم ٣٢.

(٥٧) ينظر البحث الموسوم بـ (علي بن أفلح كاتب المزيديين): جواد علوش، **مجلة الأستاذ**، بغداد، مج ١٢، عام ١٣٨٣هـ، ص ٣٤٦.

(٥٨) **البديع** لابن أفلح ١٣٢.

الخيال الشعري بين الشابي ومحمد الخضر حسين

بقلم: د. إبراهيم عبد الفتاح رمضان(*)

(٣)

المبحث الثاني

الخيال الشعري

بين الشابي والخضر في مجال الاستشهاد

(٠/٢) إنّ الشواهد التي ذكرها كلا الرجلين يمكن تناولها من نواحٍ متعددة؛ منها:

١. منطلق الاستشهاد.

٢. طبيعة الدراسة هي ما يفرض طبيعة الاستشهاد.

٣. علاقة الاستشهاد بالغرض المسوق له الكلام.

٤. أبيات اشتركا في إيرادها.

٥. ما تفرَّد به كل منهما في مجال الاستشهاد (أبيات من صنع الخضر- استشهاد بالأدب الغربي عند الشابي).

٦. الشواهد المعيبة.

(١/٢) **منطلق الاستشهاد**: إن مفهوم الخيال لدى كل منهما هو الذي جعل

طبيعة الدراسة تختلف إحداهما عن الأخرى؛ فالخيال عند محمد الخضر حسين هو الخيال التراثي، أو النظرة الكلاسيكية التراثية للخيال التي يدور فيها الخيال في فلك المجاز. وأمّا نظرة أبي القاسم الشابي، فهي نظرة الرومانسيين للخيال. وما من شك في أن نظرة الكلاسيكيين تختلف اختلافًا كبيرًا عن نظرة الرومانسيين للخيال؛ ففي الوقت الذي نرى فيه الخيال مقيدًا بما يوافق العقل، أو قل: مقيدًا بسلطة العقل، نجد النظرة الأخرى تفتح له المجال ولا تحده بشيء. ولو أننا حاولنا أن نصف نظرة الخضر لوجدناها نظرة كلاسيكية. والكلاسيكيون لهم طبيعة خاصة تحكمها تصورات يمكن التعبير عنها من خلال قول الدكتور محمد غنيمي هلال: «كان العقل عند الكلاسيكيين أساس فلسفتهم في الجمال والأدب، على حين عُني الرومانتيكيون بالقلب والعاطفة دون العقل؛ فالعقل عند الكلاسيكيين مرادف للذوق السليم أو صواب الحكم، ولا تتوافر السلامة أو الصواب إلا إذا اتفق الحكم مع ما تواضع عليه المجتمع، وما ساده من تقاليد، وفي هذا الاتجاه العقلي يظهر صواب الحكم، فيجب أن تقاد العبقرية الفردية بزمام الحكم الجماعي الرشيد عندهم دائمًا. ويجب أن تمر الخواطر في مجال التفكير؛ لتصفَى وتُهذَّب حتى تخرج إلى الناس منطقية معتدلة غير مشبوبة. والشعر عندهم لغة العقل، فلابد أن يبرأ من الخيال الجامح، والنزعات الفردية، والعواطف الجياشة»[1]. هذه النظرة الكلاسيكية تقابلها نظرة أخرى رومانتيكية قرأ عنها الشابي، وتأثر بها، ولا أحد ينكر أن الشابي رجل رومانسي، يشهد له بذلك فكره وكتابته وشعره، «وأمّا الرومانتيكيون، فإنهم يجحدون ذلك الاتجاه العقلي الذي مجَّده الكلاسيكيون، ويستبدلون به العاطفة والشعور، وهم يُسلمون قيادهم إلى القلب؛ لأنه منبع الإلهام، والهادي الذي لا يخطئ، إذ هو موطن الشعور، ومكان الضمير. والضمير عندهم قوة من قوى النفس قائمة بذاتها، وهو غريزة خلقية تميز بين الخير والشر عن طريق الإحساس والذوق»[2].

ولعل هذا بعض السر في اختلاف النظرة عند الرجلين إلى الخيال، وقد ترتَّب على ذلك الاختلاف كذلك في طبيعة النصوص التي استشهد بها كلا الرجلين على ما يسوق من قضايا.

ويمثل الاستشـهاد الذي استشهد به الخضر والشـابي رؤية مختلفة لدى كل منهمـا؛ فأحدهما ينظر إلى الخيال نظرة تراثية، ويدرسـه دراسـة موضـوعية، ويقف عند الشـواهد يسـتنطقها، ويدرس ما فيها من خيال قـد تفرَّق في بطون الكتـب، فقام بجمعه، ولكن لم يفُتْه أن تكـون له نظرات فنية تدل على ذوق عالٍ، واختيـار موفق، فقد ذكر في كتابه مئتين وسـبعة أبيات، تمثل مئة وأربعة وأربعين شاهدًا، المعيب منها ثمانية أبيات، وليس هو من عابها، وإنما النقاد الذين سبقوه. وأمّا الآخر فرجل درس الخيال دراسـة فنية، تأثر فيها بالمذاهب الغربية؛ فأدخل الأدب في مقارنـة مـع أدب الأمم الأخـرى، وهذا أمر محمود لو أحسـن الشـابي اسـتثمار ما نقله عـن الآداب الغربية، لكن الشـابي كان قد اتخذ موقفًا مسـبقًا من التراث، ولم يبق له سـوى الشواهد التي يسوقها؛ لتؤيد ما ذهب إليه. ولا أدلَّ على ذلك من أن رجلاً قد استشـهد بواحد وسـبعين شـاهدًا، رضـي منها واحدًا وعشـرين، وعاب خمسين شاهدًا. وتبلغ عدة الأبيات التي استشهد بها ثلاث مئة وثلاثة عشـر بيتًا؛ عاب منها مئة وستة وخمسـين بيتًا، ولم يعب مئة وسبعة عشر أخرى.

(٢/٢) طبيعة الدراسة هي ما يفرض طبيعة الاستشهاد:

ذكرنـا قبلُ أن طبيعة النظرة -من كلا الرجلين- إلى الخيال هي التي تحكم طبيعـة النصـوص التي استشـهد بها كل واحـد منهما؛ فالخضـر متأثر بحديث البلاغيـين، واستشـهاده يـدور في فَلَك البيـت والبيتين؛ ففي حديثـه عن المخيّلة ودورها عند الانتخاب والاختيار بما يناسب الغرض يختار بيتًا واحدًا لابن هانئ، وهو قوله:

كـأنّ أرؤسـهـم والـنـوم واضـعـها على المناكب لم تُخلق بأعناق

وفي حديثه كذلك عن فنون الخيال ذكر أن من فنونه تكبير الصـغير، كقول بشر يصف وقعته مع الأسد حين قسمه شطرين:

فـخـرً مـضـرجًـا بـدم كـأني هـدمـت بـه بـنـاءً مشـمـخِـرًا

ومثل ذلك استشـهاد الخضـر في حديثـه عن الغرابة في الصـورة بقول ابن الخطيب يصف ليلة:

رعـشـت كـواكـب جـوهـا فكـأنهـا ورق تـقـلـبـهـا بـنـان شحيح

ومن أمثلة استشـهاده بالبيتين ما ذكره في التفاضُـل في التخييل؛ حيث ذكر قول الشاعر:

ولما رأيـت البحـر في الجـود آيـةً ومـن جـوده الـدر الثمين المقلد

سألته: مَـن في الناس علَّمك الندى فقال: أميـر المؤمنين محمد

ومن ذلك أيضًا: استشهاده ببيتين من معلقة عمرو بن كلثوم، وهما قوله:

مـتـى نـنـقـل إلـى قـوم رحـاهـا يكونوا في اللقاء لها طحينا

يكـون ثِـفـالـهـا شـرقـيّ نجد ولهوتها قضـاعة أجمعينا

غير أنّ الخضـر لم يقتصـر على ذلك البيت والبيتين، بـل كان ذلك الأغلب الأعم، فنجده قد ذكر في كتابه مئة وأربعة وأربعين شـاهدًا، منها تسـعون شاهدًا عبـارة عن بيت واحد، واثنان وأربعون شـاهدًا عبارة عن بيتين، وثمانية شـواهد عبـارة عن ثلاثة أبيات، وشـاهدان اثنان عبارة عن أربعة أبيـات، لكننا نجد له استشـهادًا واحدًا بلغ ستة أبيات. وهذا يدل دلالة واضحة على ما أشرت إليه من قبل؛ وهو أنّ الخضـر كانت استشـهاداته تدور في فلك البيت والبيتين، وذلك أثر من آثار البلاغيين الذين لا يذكرون إلا موطن الشاهد فقط، مما جعل كثيرًا من المحدَثين -وبخاصـة من كتبوا في علم لغة النص- يتهم بلاغتنا العربية القديمة بأنها بلاغة الشاهد والمثال.

أمّا أبو القاسم الشابي، فيركز اهتمامه على القطعة الشعرية أو -على الأقل- مجموعة أبيات؛ فمن بين واحد وسبعين شاهدًا نرى الاستشهاد بالبيت الواحد عنده في سبعة عشر شاهدًا، وقد استشهد ببيتين في أحد عشر شاهدًا، واستشهد بثلاثة أبيات في تسعة شواهد، وبأربعة أبيات في سبعة شواهد، وبخمسة أبيات في تسعة شواهد، وقد استشهد بأكثر من ذلك، حتى إنّ أحد استشهاداته بلغ تسعة وعشرين بيتًا، وهي قصيدة لعمر بن أبي ربيعة، يستشهد بها على تميزه وريادته في الشعر القصصي[٣]. ومن أمثلة استشهاده بالبيت الواحد قوله وهو يتحدث عن الأساطير عند العرب:

له هامة تدعو إذا الليل جنَّها «بني عامر هل للهلالي ثائر»

وكذلك استشهد ببيت واحد لأبي تمام، وهو يذكر وصف الطبيعة عند العرب:

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هي منظر

وكذلك استشهد ببيت واحد للطغرائي وهو يتحدث عن فكرة عامة عن الأدب العربي:

أعلِّل النفسَ بالآمال أرقُبها ما أضيقَ العيش لولا فُسحة الأمل

ومن استشهاده بالبيتين قوله:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة وحرٌّ على الأحشاء ليس له بردُ

وفيض دموع العين يا «مي» كلما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

والأمثلة كثيرة. ولعل اهتمام الشابي بذكر مجموعة من الأبيات هو سمة من سمات الرومانسية، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع عدد الأبيات التي استشهد بها -إذا ما قُورنت بالأبيات التي استشهد بها الخضر- فالشابي ذكر واحدًا وسبعين

شـاهدًا في كتابـه كله، ومع ذلك بلغت عـدة الأبيات في كتابه ثلاثة عشـر وثلاث مئة بيت، في الوقت الذي ذكر فيه الخضـر مئة وأربعة وأربعين شـاهدًا بلغت عدة الأبيات فيها سـبعة ومئتي بيت. وهذا دليل واضـح على طبيعة الشـاهد عند كل منهما؛ فاهتمام الخضر ينصبُّ على موطن الشاهد فقط، ولذا يركز على البيت والبيتـين، وأمّا اهتمام الشـابي، فمنصـبٌّ على القطعة الشـعرية، وهذا فرق في المنهج الذي يتبعه كل منهما.

(٣/٢) علاقة الاستشهاد بالغرض المسوق له الكلام:

إنّ كتاب الخضـر هو حديث عن الخيال نفسـه تأصـيلاً واستشهادًا، ولذلك جـاء كلامه كلامَ من يضـع قواعد للخيـال، ثم يدلل عليها من الـتراث العربي. صـحيح أن الـكلام الذي ذكره ليـس جديدًا، لكنه كان متفرقًـا في بطون الكتب، فألَّف بينه الخضـر، وهو قد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه، فقال: «ولا أدَّعي أنّ هذا الفن مما ضل عن أولئك الفلاسفة، فلم يعرجوا على مكانه، أو صعُب عليهم مراسـه، فلم يسوسوه بفكر ثاقب وبيان فاصـل، فإن كثيرًا من علماء البلاغة قد ولوا وجوههم شطره حتى توغلوا في طرائقه، وكشفوا النقاب عن حقائقه ... وما كان لي سـوى أن أعـود إلى مباحثه المبثوثة في فنون شـتى، فأسـتخلص بقدر ما تسمح به الحال لبابها، وأؤلف بين ما تقطع من أسبابها»[٤].

فالخضـر في كتابه تحدث عن التخييل عند البلاغيين والفلاسـفة، ثم عقَّب بعنـوان: مـاذا نريد من التخييل؟ وفي كل ذلك نراه يستشـهد علـى ما يذكر. ثم انتقـل إلـى تداعي المعاني واختلاف الأفكار فيها، وقسـم الخيال إلى تحضـيري وإبداعي، وهو في ذلك أيضًـا يسـوق استشـهادات تؤيد ما يذكـر. ثم تحدث عن فنون الخيال وأسـباب جودته، والتفاضـل فيه وأطواره. وفي كل ما سبق يسوق ما يراه شاهدًا على دعواه لترسخ في نفس متلقِّيه.

إذن: نجـد ارتباطًـا وثيقًـا بين الغرض المسـوق له الكلام في كتاب الخضـر

وبين الاستشهاد المذكور فيه؛ ففي باب فنون الخيال يذكر أنه يكثّر القليل، ويذكر لذلك شاهدًا لعمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملأه سفينا

وفي سياق حديثه عن أسباب جودة التخييل يذكر أن جودته تكمن في أن يكون مبنيًا على ملاحظة أمور متعددة؛ فالصورة التي يراعى في تأليفها ثلاثة معان تكون أرجح وزنًا من التي تبنى على ملاحظة معنيين، ويذكر شاهدًا على ذلك لابن عمار مخاطبًا المعتصم:

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

وفي حديثه عن أطوار الخيال يذكر بيتًا لزهير بن أبي سلمى، مبينًا أن فن التخييل كسائر الملَكات والصنائع يترقى شيئًا فشيئًا، ويتكامل يومًا فيومًا، وأنّ زهيرًا ظفر بتخيلات لم يظفر بها من تقدموه بأمد بعيد من مثل قوله:

ومن يعصِ أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي ركبت كل لهذم

وبالتالي يتضح لنا أنّ الخضر قد ارتبط استشهاده بما فيه من تأصيل للخيال بقضاياه المختلفة التي تحدث عنها في كتابه، فجاء استشهاده موافقًا لما يقوم بالتدليل عليه.

ومثل ذلك نراه عند أبي القاسم الشابي، الذي قسم كتابه إلى أغراض الشِّعر الفنية وعلاقة الخيال بكل غرض من هذه الأغراض، فدراسة الخضر لموضوع الخيال دراسة موضوعية، ودراسة الشابي للخيال دراسة فنية، وقد جاء استشهاده كذلك مرتبطًا بما جرد القلم للحديث عنه؛ فقد تحدث عن الخيال تعريفًا وتقسيمًا، ثم تحدث عن الخيال وعلاقته بالأساطير، ثم الخيال وعلاقته بالحديث عن المرأة، ثم الخيال والطبيعة، ثم الخيال والقصة في الأدب العربي، ثم فكرة عامة عن الروح العربية.

ففي حديثه عن الأساطير وعلاقتها بالخيال يذكر إحدى الأساطير العربية وهي الغول، وهي حيوان خرافي يزعمون أنه كريه المنظر، شنيع الخِلقة يألف الغيران الموحشة والفيافي المقفرة ليضلل الناس، ويلهو بالجماجم، ويدَّعي أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أُولع تأبط شرًّا بوصفها والتحدث عنها في شعره؛ ومن ذلك قوله:

وإني قد لقيت الغول تهمي	بسيف كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أيْنٍ	أخو سفر فخلّي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فأهوى	لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فخرت	صريعًا لليدين وللجِران

ومن الأبيات التي استحسن الشابي الخيال فيها عند حديثه عن الطبيعة في الشعر العربي وعلاقتها بالخيال أبيات البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا	من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبَّه النوروز في غسَق الدجى	أوائل ورد كنّ بالأمس نُوَّما
يفتّقها برد الندى فكأنه	ينث حديثًا كان قبل مُكتَّما

ومن الأبيات التي عابها الشابي من جهة حديث الشاعر عن الجمال الحسِّي في المرأة عند حديثه عن المرأة في الشعر العربي وعلاقة الحديث عنها بالخيال أبيات الأعشى:

غرّاء فرعاء مصقول عوارضها	تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل
كأنّ مشيتها من بيت جارتها	مرّ السحابة لا ريث ولا عجل
يكاد يصرعها لولا تشدُّدها	إذا تقوم إلى جاراتها الكسل

والأمثلة كثيرة. لكن يتضح أن التناول لدى الرجلين يسير على وفق مذهب كل منهما؛ فالخضر رجل كلاسيكي يرضى ذوقه أن يؤصِّل للخيال بأن يدرسه

درسًا موضوعيًّا يذكر له شواهد مما يحفظ من لغة العرب، وقد حقق الغاية في ارتباط الاستشهاد بالموضوع الذي يتحدث فيه. وأبو القاسم الشابي رجل رومانسي يرضي ذوقه أن يدرس الخيال دراسة فنية من خلال علاقة الخيال بالأغراض الشعرية التي يتحدث فيها المبدعون -بصرف النظر عن دوافعه لهذه الدراسة، أو نتائجه التي توصل إليها- وبالتالي نجد المنطلق مختلفًا، وطبيعة التقسيم مختلفة، لكن يبقى الاستشهاد بينهما دالاً على قناعة كل منهما في تناول كتابه.

(٤/٢) أبيات اشتركا في إيرادها:

اتفق الخضر والشابي في نموذج شعري مكوّن من أربعة أبيات من الشعر الأندلسي، لكن كل واحد منهما نظر إليه من زاوية مغايرة؛ ففي الوقت الذي أُعجب به الخضر وعلق عليه بما يفيد الاستحسان، نرى الشابي يسوقه شاهدًا على قلة حظ الشعر الأندلسي من الخيال عن نظيره العباسي. ونسوق كلام الرجلين، ثم نعلق عليهما.

يقول الخضر في باب بعنوان: بماذا يفضل التخييل؟ وفي الحالة الثانية التي يفضل فيها التخييل يذكر: «أن يكون التخييل مبنيًّا على ملاحظة أمور متعددة... والأدباء الذين أروك الحصى في صورة الدُّرِّ ليسوا بقليل، وإنما المزيَّة لمن اتسع في صورة هذا المعنى، ونظر في تركيبها إلى أمور متعددة، فقال يصف واديًا:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ	سقاه مضاعف الغيث العميمِ
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيمِ
وأرشفنا على ظمأ زُلالا	ألذّ من المدامة للنديمِ
يروع حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيمِ

كأني بالشاعر عندما فتح جفنه على الحصى -وهي في ملاستها وصفاء

منظرها- انصرف خياله إلى ما يحاكيها من الجواهر النفيسة، ثم إلى حال تناسقها في هيئة قلادة، وتذكر بها موقعها من الصدر، فخطرت على قلبه الفتاة، وشرع يتصور كيف تنظر إلى تلك الحصى، فيهجم على ظنها بغتة أن قلادتها انفرطت، وأن ما تراه من الحصى إنما هو اللؤلؤ الذي كان متناسقًا في نحرها قد تساقط إلى مواطئ أقدامها، فلا تتمالك أن تضرب يدها على العقد حتى تحفظ البقية من السقوط، أو لتتيقن صدق ظنها فتسعى إلى التقاطها»[٥].

لكن الشابي يعلن رأيًا جديدًا في الشعر الأندلسي -ويخص شعر الطبيعة أكثر من غيره- فيفضل عليه الشعر العباسي من جهة الخيال، ويحمل على ابن خفاجة، ويسوق أمثلة لضعف الخيال عند الأندلسيين، ثم يكون من الأمثلة التي ساقها ذلك المثال الذي سبق أن أعجب به الخضر، فإذا به شاهد على خلو الشعر الأندلسي من الخيال، يقول: «غير أن لي في الأدب الأندلسي، وبالأخص في الطبيعي منه، رأيًا جديدًا، ربما لا توافقونني عليه، ولكنني قائلُه لكم، ولولا ذلك لما أعلمتكم به. ينحصر هذا الرأي في أن الفن الطبيعي في الأدب العباسي أبعد نظرًا وأعمق خيالاً، وأدق شعورًا منه في الأدب الأندلسي. رغمًا عن أنّ الأدب الأندلسي أحفلُ بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره، ورغمًا عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة، وأرقى أسلوبًا، وأدق تصويرًا، ورغمًا عن أنّ البلاد الأندلسية أشد جمالاً، وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبتت ذلك الأدب العباسي الجميل؛ فإنني لأَجد من صدق الشعور، وقوة العاطفة عند البحتري وأبي تمّام وابن الرومي ما لا أجده عند ابن خفاجة وابن زيدون، وغير هذين من شعراء الأندلس. ثم ما رأيكم أنتم؟ ألا تحسون بهذه النظرة البعيدة النافذة، وبهذا الخيال القوي العميق في بيت أبي تمّام:

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هي ملعبُ

أيُّ خيالٍ أعمق، وأيُّ نظرٍ أبعد؟ أليس من بُعد النظر وعمق الخيال أن يحس

الشاعر بتلك الدنيا الخيالية الرائعة التي يخلقها الربيع، ويتكشف عنها الوجود؟ تلك النظرة إلى الدنيا البريئة الطاهرة التي لم تخلق لمشاغل العيش وأرجاسه، وإنما خُلقت للذة وإمتاع النفوس الشاعرة؟ ثم ألا تشعرون بهذا الإحساس القوي الصادق في بيت البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

هذا الإحساس العميق اليقِظ الذي يكاد يستمع إلى صوت الربيع؟ ثم ألا تحسون بهذا الشعور المشتمل في بيت ابن الرومي:

إذا ما أعارتها الصبا حركاتها أفادت بها أنس الحياة فتأنس

هذا الشعور الصادق الذي يُحس بروح الحياة السارية في عروق الكون؟

بلى! إن في هذه الأبيات الثلاثة من عمق الخيال ودقة الإحساس بجمال الوجود ما لا يظفر بمثله في الأدب الأندلسي، على ما في البلاد الأندلسية من نضارة وحُسْن لم تُرزق مثلهما البلاد الشرقية. وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة صدمة قوية كادت تزعزع إيماني بصحة تلك النظرية التي قلتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي)، ولكنني وجدت بعد ذلك العامل الحقيقي الذي أَثَّرَ في الأدب الأندلسي هذا الأثر البعيد، وهذا العامل هو أن الأدب الأندلسي قد نشأ في عصر توفَّرَت فيه أسباب الحضارة توفُّرًا منكرًا. فانغمست النفوس في حمْأة الشهوات انغماسًا أمات بها العواطف الهائجة، وأخمد نوازي الشعور، فأصبح تيار الحياة يتدفَّق عن إيمان الناس وشمائلهم وهم لا يشعرون، وأصبحت الطبيعة في أنظارهم وسيلة جامدة من وسائل اللذة، لا منبعًا خالدًا من منابع الإلهام. وهكذا أخمدت تلك الأنوثة المترفة توهُّج الشعر، وضياء القرائح، على أنها هذبت من الألسنة، ورقَّقت أساليب الخطاب، فكان الشعر الأندلسي رقيقًا طليًّا، ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور[٦].

ثم ذكر أمثلة كان منها هذا المثال، ثم قال: «وعلى هذه السُّنَّة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة، وتعابير عذبة ناصعة، ووصف دقيق جميل، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق»[٧].

ويلحظ على هذا المثال ما يأتي:

١. عزا الشابي الأبيات إلى إحدى شواعر الأندلس، أمّا الخضر، فلم يصرح بعزو، ولكن تحليله يجعل القائل رجلاً. وقد نُسبت هذه الأبيات لحمدة، ويقال حمدونة بنت زياد بن بقي، غير أنّ هذه الأبيات في **معجم الأدباء** منسوبة للمنازي[٨]. فقول الشابي والخضر صواب، كلٌّ باعتبار ما وقف عليه.

٢. اعتزاز الشابي الشديد بنفسه؛ إذ يقول في بداية الاقتباس: «غير أنّ لي في الأدب الأندلسي، وبالأخص في الطبيعي منه، رأيًا جديدًا، ربما لا توافقونني عليه، ولكنني قائله لكم، ولولا ذلك لما أعلمتكم به». وربما يعود هذا الأمر إلى طبيعة السن التي يتحدث فيها الشابي في نشوة الشباب، وعنفوان الفتوة، والإحساس بالذات.

٣. قد يعود خلوُّ الأبيات من الخيال -في نظر الشابي- أنه لا يميل إلا إلى الخيال الجامح المزمجر، والأبيات فيها عطف وحُنُوٌّ ورقة بالغة؛ فهو يقرر «أن الأدب الأندلسي قد نشأ في عصر توفَّرَت فيه أسباب الحضارة توفُّرًا منكرًا، فانغمست النفوس في حمْأة الشهوات انغماسًا أمات بها العواطف الهائجة، وأخمد نوازي الشعور»، فهو يحب الفوران والجموح في المشاعر، ويصف الخيال الممتع الهادئ بأنه أنوثة.

٤. ربما لم يعجب الشابي في هذه الأبيات الوقوف عند الصورة البيانية؛ من حيث التشبيه والكناية المذكورَيْن في الأبيات، وكنا قد ذكرنا أنه لا يحب قصر الخيال على مفردات علم البيان[٩].

٥. ليس في العلوم الإنسانية والأدبية قولٌ فصل لاعتمادها على الذوق والحس والشعور -وهي أمور لا يمكن ضبطها- وبالتالي قد يكون الخضر محقًا حين قرر بوجود الخيال، بل الخيال فيها يفضُل غيره من جهة نظر تراثية كلاسيكية، وقد يكون الشابي محقًّا حين نزع منها الخيال؛ لأنه يميل إلى الخيال المدوي الذي يزلزل الأركان، ويهدُّ البنيان.

(٥/٢) ما تفرد به كل منهما في مجال الاستشهاد:

- يفارق الخضر أبا القاسم الشابي في أنّ الخضر ذكر عدة أبيات من نظمه في كتابه، وعددها اثنان وعشرون بيتًا، تمثِّل عشرة شواهد، وهي تتماشى مع موضوع الكتاب، فمن يقرأ الكتاب لا يشعر بإقحامها فيه، وإنما هي مساوِقة له، منسجمة معه. بيد أنّ الشابي لم يفعل ذلك، واكتفى بالاستشهاد من شعر غيره، بل إنه وقف بالاستشهاد عند العصور القديمة، ولم يتطرق للشعر العربي الحديث؛ ذلك أنه كان له منطلق أيديولوجي انطلق منه؛ وهو مقارنة الشعر العربي بغيره من شعر الأوروبيين من ناحية الخيال.

وحين نقارن بين الأمثلة والشواهد التي ساقها الخضر لنفسه في كتابه، سنجد أنه شاعر خصب الخيال، لا يتعصب لنفسه، فيسوق أبياتًا تضعف من شأن الكتاب، ولكنه يقارب كبار الشعراء الذين استشهد بشعرهم.

ففي حديثه عن المخيلة يذكر أنها تقتصر على ما يدعو إليه الغرض، حتى إنها تأخذ الجسم مقطوعًا من بعض الأعضاء التي لا مدخل لها في المعنى، فتخيل إنسانًا بغير عنق ... يقول الخضر: «وأخذت المقلة وحدها في أبيات نظمتها في قرية قائمة على بحيرة، فقلت:

سرق الغمام اليوم ظلي بعد أن	رسمته في لنداو شمس ضحاها
ويد الرحيل تخطفت من جلق	جسمي وأبقت مهجتي برباها
فأنا خيال والبحيرة مقلة	لكن تطاول بالخيال كراها»[١٠]

وفي موضع آخر من كتابه وهو يتحدث عن فنون الخيال: «ومما صنعتُ على هذا النمط، وقد أخذ البرَد يتساقط في حديقة[١١]:

هز النسيم غصون الروض في سحر ... كما يهزّ بنانُ الغادة الوترا
لذ الحفيف على أذن السحاب أما ... تراه يحثو على أدواحها دررا

وفي حديثه عن فنون الخيال يقول أيضًا: «وقلت في حال أشجار تراكم عليها الثلج، ثم ضربت فيها الشمس، فأخذ يتقاطر عن جوانبها[١٢]:

نسج الغمام لهذه الأشجار من ... غزل الثلوج براقعًا وجلاببا
والشمس تبعث في الضحى بأشعة ... تسطو على تلك الثياب نواهبا
فبكت لكشف حجابها أوَمَا ترى ... عبراتها بين الغصون سواكبا»

وبمقارنة هذه الأبيات بشعر الأقدمين لا نجد كبير فرق بين القائلين، وهذا يبرئ الخضر من التعصب لنفسه ولشعره، ويظهر هنا أنه قد وضع شعره في كتابه مستشهدًا به، وهذا يميز بين عمله وعمل الشابي.

- ما تفرّد به الشابي: تفرد الشابي بأنه نقل عن الأدب الغربي والشرقي، وهذا ما لا نجده عند الخضر؛ فقد نقل الشابي عن اليونان في حديثه عن الأساطير؛ يقول: «فقد أخذ اليونان كثيرًا من عقائدهم وأساطيرهم عن الآشوريين، كما أخذ العرب أنفسهم، ولكنهم طبعوها بطابع حياتهم الخاصة، فكانت رشيقة شعرية ساحرة أكثر ممَّا كانت عليه عند الآشوريين، فهم أخذوا عن الآشوريين عبادة إلهة الحب والجمال (عشتروت)، كما أخذها العرب عنهم، ولكن العرب عاملوها كما يعاملون أنصابهم التي لا ترمز إلى فكر ولا تمثل عاطفة»[١٣]. ونقل كذلك عن الإسكانديناف[١٤]. ونقل عن الرومان في الحديث عن الطبيعة[١٥]. كما نقل الشابي في وصف الطبيعة كلمتين لشاعرين من شعراء الغرب: أولاهما للامَرْتين وآخراهما لجيتي، ثم قال: «حتى تتبيّنوا الفرق بين الرنة العربية الساذجة البسيطة وبين الرنة الغربية العميقة الداوية»[١٦]. ثم ينقل

عن شـاعر الهند طاغور حينما كان يتحدث عن الخيال الشعري والمرأة[١٧]. كما ينقل عن جبران خليل جبران الشاعر المهجري الذي كان مفتونًا به[١٨]. ثم يقارن بـين الطريقة العربية والطريقـة الغربية في التناول، فيختار من الغرب آسـيان، ومن العرب ابن زريق؛ يقول: «ولكي يتضـح الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشـياء والنظر إليها، فإنني أريد أن آخذ قصيدة ابن زريق البغدادي، وأتناولها بطريقة تحليلية موجزة وأقابل بينها وبين قطع أخرى للشاعر الإسكوتلندي آسيان»[١٩].

وبالجملة فما يكاد يمر فصل من فصول كتابه حتى يستشهد بالغربيين، لكن الملاحظ أن الاستشـهاد بهم يتبعه رفع من شأن الخيال عندهم، وفي مقابل ذلك يغض من شأن الخيال العربي.

(٦/٢) الشواهد المعيبة:

سـاق الخضر ثمانية شـواهد معيبة، ولم يكن الخضر هو الذي عابها، ولكن عابها النقاد قبله، ووافق النقّادَ على عيبها، فساقها مساق الراضي برأي سابقيه، ومـن ذلك قوله: «ولو نظر شـاعر إلى أزهار مفتحة بمـكان منخفض من الأرض وقال مثلاً:

هـذه الأزهـار في منظرها وشـذاها مثل أزهـار الربا

لاستبردت شعره لأول وهلة، وأخذت تهزأ به كما هزأت بقول الآخر:

كـأننـا والمـاء مـن حولنـا قوم جلوس حولهم مـاء»[٢٠]

وكلام الكاتب منطقي جدًّا، ليس بحاجة للتدليل عليه. ويضع الخضر شروطًا للتفاضل في التخييل؛ منها: أن يجري الشاعر في استخلاص المعاني وتأليفها على ما يوافق الذوق السليم، وذكر أن الشاعر قد تأخذه سِنة عن هذا الشرط، فيضع المعنـى الخيـالي على مثال تشـمئز منه النفس، ثـم ذكر أمثلة لتلك السِّـنة، وما يخرج به المعنى في صـورة مشـوهة تقذفها العيون. «ومثال هذا أنّ أبا القاسم بن

فرناس أنشد الأمير محمدًا أبياتًا يقول فيها:

رأيت أمير المؤمنين محمدًا وفي وجهه بذر المحبة يثمر

فقال له مؤمن بن سعيد: قبحًا لما ارتكبته؛ جعلت وجه الخليفة محراثًا تثمر فيه البذور؟ فغشيه الخجل، وجعل جوابه عن هذا النقد الصائب سبابًا. ووقع في مثل هذه الزلة كثير من كبار الشعراء، فهذا أبو تمام يقول في مدح أحد الأبطال:

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثا

فجعل ممدوحه محراثًا، كما جعله هاذيًا حين قال:

لا زال يهذي بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم»[٢١]

ونلحظ من الأمثلة السابقة أن الخضر لم يكن هو العائب للأبيات المذكورة، ولكنه وافق من عابوها، والدليل على ذلك قوله في الاقتباس السابق: «وجعل جوابه عن هذا النقد الصائب سبابًا».

فإذا انتقلنا إلى أبي القاسم الشابي سنجد أنه ذكر في كتابه واحدًا وسبعين شاهدًا، عاب منها خمسين، ورضي عن واحد وعشرين، ليبلغ عدد الأبيات التي عابها مئة وستة وخمسين بيتًا، بيد أنه يلاحظ أنّ إعابة هذه الأبيات كان منه، فلم يسبقه أحد بإعابتها، وكان اعتراضه عليها من جهة خلوها من الخيال بالمعنى الذي يقصده هو، والذي جرد قلمه لتوضيحه في كتابه. ففي سياق حديثه عن الخيال الشعري والأساطير يعيب على العرب خلو شعرهم من الأساطير التي هي موطن الخيال، حتى الأساطير العربية خلا الحديث عنها من الخيال إلا أسطورة واحدة هي أسطورة النجوم[٢٢]. وفي سياق حديثه عن شعر الطبيعة والخيال الشعري يعيب على ابن زيدون قوله:

كأن عشي القطر في شاطئ النهر وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر

تـرش بمـــــاء الـورد رشًّا وتنثنـــي لتغليف أفــواه بطَيِّبة الخمــر

وجهــة العيب عنده أنّ الأبيات فيها جودة وصــف، وليس فيها خيال «ديباجة غضــة ناعمة وتعابير عذبة ناصــعة ووصــف دقيــق جميل، ولكن ليســ وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق»[٢٣].

وفي ســياق حديثه عن الخيال العربي والمرأة يعيــب على العرب حديثهم عن الجمال الحسي الذي يوزن بالقنطار، فيعيب على امرئ القيس قوله:

كـأني لم أركـــــــب جـوادًا للذة ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال

ولم أسـبأ الـزق الـروي ولم أقـل لخيلي كـرِّي كـرة بعـد إجفال

وهكذا نجده في كل فصل من فصول كتابه يجرد الشعر العربي من الخيال، ويقــارن بينه وبين الشــعر لــدى الغربيين ليخــرج بنتيجة واحدة هي خلو الشــعر العربي من الخيال، وتوفر الخيال الممتع لدى الشعوب الأخرى.

(للبحث صلة)

الهوامش:

(*) كلية الآداب جامعة المنوفية والقصيم

(١) **الأدب المقارن**، ص٣٢.

(٢) السابق، ص٣٣-٣٤.

(٣) **الخيال الشعري عند العرب**، الشابي، ص٦٤-٦٥.

(٤) **الخيال في الشعر العربي**، الخضر، ص٣.

(٥) السابق، ص٤٦-٤٧.

(٦) **الخيال الشعري عند العرب**، الشابي، ص٣٤-٣٦. وقد نقلت كلام الشابي على طوله لما له من أهمية في تجلية رأيه في الشعر الأندلسي، وبيان موقفه منه.

(٧) السابق، ص٣٨.

(٨) وهو أحمد بن يوسف، ونسبته إلى منازكرد، وكان وزيرًا للمروانية ملوك ديار بكر، وسيّره نصر الدولة أحمد بن مروان رسولاً عنه إلى مصر، فزار المعرَّة واجتمع بأبي العلاء، وهو شاعر مُقِل مجيد. ينظر: **معجم الأدباء**: ١٢١٢/٣، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٩) هناك نظرة تراثية تقف بالخيال عند حدود مفردات علم البيان، وأخرى تتجاوز ذلك إلى جعل الخيال مَعينَ الشعر وتفصل بينه وبين الخيال الصناعي المتمثل في الصورة البيانية. ينظر: الخيال في شعر الغزل الأندلسي من الفتح حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ندى عسكر محمود، **مجلة الأستاذ** العراقية، العدد ٢٠٥، المجلد الأول، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

(١٠) **الخيال في الشعر العربي**، الخضر، ص٢١.

(١١) السابق، ص٣٢.

(١٢) السابق، ص٣٢.

(١٣) **الخيال الشعري عند العرب**، الشابي، ص٢٣.

(١٤) السابق، ص٢٤-٢٥.

(١٥) السابق، ص ٢٨.

(١٦) السابق، ص٣٩.

(١٧) السابق، ص٤٧.

(١٨) السابق، ص٥٧. وينظر: **الشابي وجبران**، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ط٤، ١٩٧٨م.

(١٩) السابق، ص٧٣.

(٢٠) **الخيال في الشعر العربي**، الخضر، ص٢٤.

(٢١) السابق، ص٤٨.

(٢٢) **الخيال الشعري عند العرب**، الشابي، ص٢٠.

(٢٣) السابق، ص٣٨.

رسالة «اتلاميد»
إبداع نثري وتقليد محظري
(وقفة مع تلطيف الأجواء وتأمين الغذاء)

بقلم: د. محمدن بن أحمد بن المحبوبي(*)

(٢)

ثالثًا- الرسالة فنِّيَّات وأساليب: نذكر هنا أن هذه الرسائل الطلابية عوَّلت في صيغها كثيرًا على فنِّيَّات أدبية راقية، تعتمد جملة من المحسِّنات البلاغية، فاعتمدت التضمين والاقتباس، وركنت إلى السجع والجناس، ناهيك عن عنايتها ببراعة الاستهلال وحسن الانتهاء. وسيتم تركيزنا في هذا المقام على إيراد أمثلة من المحسِّنات البديعية، مكتفين بمحاورتها واستنطاق جمالياتها فيما يأتي:

أ - حضور التضمين والاقتباس

وفي هذه المسألة يحسن التذكير بأن هذه الرسائل في معظمها متشابهة ومتقاربة، يتقاطع بعضها مع بعض. والمتصفح لها يمكن أن يلحظ ثلاثة ضروب من التضمين والاقتباس.

١- اقتباس الآيات القرآنية:

لقد استعان الطلاب في تحرير هذه الرسائل المحظرية بالأساليب القرآنية

ليعززوا بها مطالبهم، ويضـفوا من خلالها على هذه الرسائل نوعًا من القداسة، فالنص القرآني مقدس ومقدس، لذلك فإن الكُتَّاب يتسـابقون إلى الاقتباس من ألفاظه ومعانيه، وهكذا ظهرت على أديم هذه الرسائل ألفاظ قرآنية مقتبسة من آيات كريمة جاءت لتعزز المعنى وتعضده، من ذلك ما ورد في الرسالة الثانية من ترغيب في التصـدق والإنفاق، امتثالاً لما جـاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وما لاح على أديم الرسالة الثالثة من الملحق؛ إذ نجد إشـارة إلى الآية الكريمـة ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۚ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، وقد وردت في هذا السـياق استعطافًا لجمع النساء واسـتمالة لقلوبهن، ورغبة في الحصول على بعض ما لديهن، لذلك ورد في وصـفهن ما يشعر بتميزهن، فهن من اللواتي ما مثلهن «بكر ولا عوان».

ونقـرأ في فاتحـة الرسـالة الرابعة ترغيبًـا في الإنفاق وحثًّا على التصـدق، إذ اسـتفتحت بـ: «الحمد لله الذي جعل المال عينًا وعرضًـا، وقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. فواضـح هنا أن الرسـالة اكتفت بجزء من الآيـة معولة على حفظ القـارئ ومعرفته بالقرآن، وفي هذه الرسـالة نفسـها ورد قولهـم: «وجعل ما بين الجـود والبخل شـتى، فقـال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ﴾». غير أن هذا السـجع هنا كلف كاتب الرسالة عناءً كبيرًا؛ إذ اضطر إلى أن يفصل حرف العطف عن المعطوف، ويقتطـع الآية اقتطاعًا قـد لا يكون محبَّذًا في جانب الوقـف والأداء، فمن المعلوم أن هذا الوقف ليس من الأوقاف المشـروعة في القرآن، ولكن الولوع بالسـجع دفع صـاحب الرسـالة إلى أن يعتمد هذا الضرب من الوقف الذي يفصل العطف عن المعطوف، وربما وقع ذلك مبالغة في التأنيس وطلبًا للتجنيس.

وفي الرسالة الثامنة من هذه الرسائل نجد اقتباسًا من قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، وقد وردت هذه الآية في معرض التنويه بطلبة العلم وتحريض أهل الإحسـان على البذل والإنفاق على من نفر ليتفقه في ديـن الله، وهكذا ورد في نص الرسـالة: «فالله سـبحانه تعالى رفـع الذين آمنوا

والذين أوتوا العلم درجات، وهيأ لهم كل أسباب التمكين من فوز وفلاح وقضاء حاجات».

وبالجملة، فإنّ هذه الرسائل عوَّلت على بعض الآيات القرآنية تبركًا وتهذيبًا للأسلوب، واستمالة للأفئدة ولقلوب المحسنين، واستدرارًا للأكُفِّ والجيوب.

٢- اقتباس الأحاديث النبوية:

لقد عوَّلت هذه الرسائل الطلابية في أساليبها على الاقتباس من الأحاديث النبوية الشريفة. وهكذا تردد في كثير منها ذلك الحديث المشهور: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا عالِمًا أو متعلّمًا أو معينًا لهما»، و هذا الحديث يحث على التعلم وعلى إعانة المتعلم كذلك، كما يستعطف المخاطَبين ليبذلوا جهودًا كبيرة في الإنفاق على طلاب العلوم محافظة على العلم وحذرًا من اللعنة الواردة في هذا الحديث.

وفي الرسالة الأولى من هذه الرسائل ورد أثر نسبه صاحبها للحديث، وهو «الناس كلهم عيال الله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله»، وقد ورد هذا الحديث في سياق مشابه للسياقات السابقة، فالغرض من إيراده هو حث الناس على البذل والإنفاق، ودفعهم إلى التضحية والإحسان إلى الفقراء والمتعلمين.

وفي نموذج آخر من هذه الرسائل وردت الإشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة». وقد اكتفت الرسالة بلفظين من ألفاظ الحديث، محيلةً على نصه الآخر، ومعولةً على ذاكرة القارئ وحفظه، مما يدلنا على عناية الشناقطة بالحديث ومعرفتهم به.

وفي بعض هذه الرسائل كذلك إشارة إلى الحديث الشريف: «إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع»[1]، وقوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وما ورد في الآثار من فضل إطعام الجائع وتقديم اللقمة للمسكين.

وفي معظم هذه الرسائل المحظرية إشارة إلى أثر ينسب إلى عائشة رضي

اللّه عنها، وهو قولها: «لو كان لي صدقة بالمشرق وطالب علم بالمغرب لبعثت بها إليه». فكل هذه الأحاديث والآثار تدلّنا على عناية الشناقطة بعلم الأثر والحديث، وعلى سعيهم الحثيث إلى خدمة المحظرة وأبنائها تفيُّؤًا لظلالها، واستمتاعًا بأمكنتها وأفنائها.

٣- تضمين الأبيات الشعرية:

لقد كان حضور الشعر في هذه الرسائل المحظرية متميّزًا وكبيرًا، ويكفي دليلاً على ذلك أنّ جميع هذه النماذج التي أوردنا قد تضمنت أبياتًا شعرية عديدة؛ ففي الرسالة الأولى وردت سبعة أبيات، جاءت لتستعطف المخاطَبين، وتدفعهم إلى البذل والإنفاق، وقد تراوحت هذه الأبيات بين الغزل والحكمة والمدح.

أمّا الرسالة الثالثة، فقد تضمنت عشرين بيتًا على قصرها، فجانبها الشعري يفوق جانبها النثري بكثير، والأشعار الواردة فيها معظمها في الغزل والنسيب والتنويه بربات الخدور، ومنها أبيات تنوِّه بجهود الطلاب في التضحية والمرابطة في ثغور العلم، والمصابرة على الدرس والتعلم. وفيها أبيات أخرى تهتم باستدرار الأكُف، واستمالة القلوب نحو الطلاب، ليطَّلع المخاطَب على أوضاعهم، فتجود نفسه بالإنفاق عليهم.

أمّا الرسالة الرابعة، فقد تضمنت ستة أبيات، تراوحت ما بين الغزل والمدح والحكمة، وغايتها لا تختلف كثيرًا عن التضمينات السابقة، إذ كان همها الناصب استعطاف القارئ واستمالة قلبه إلى البذل والإنفاق.

وتأتي الرسالة الخامسة لتحتضن سبعة أبيات، تتراوح ما بين الغزل والحكمة، منوهة بشأن المرأة، وداعية الرجل إلى أن يصون عرضه ببذل المال.

أما الرسالة السادسة، فقد ضمت سبعة أبيات، أكثرها من الشواهد التي وردت في المؤلَّفات النحوية تأكيدًا لبعض الاستعمالات النادرة، وهي تكشف عن

تمكُّن صاحب هذه الرسالة من النحو، ورسوخ قدمه في العلم ومعرفته بالشواهد، وقد أدت هذه الشواهد في نص الرسالة وظيفة مزدوجة؛ فهي تستعطف الناس وتستدر الأكف، وتحيل في الوقت نفسه إلى بعض القواعد النحوية المعروفة.

ونبلغ الرسالة السابعة التي احتضنت سبعة عشر بيتًا، على شاكلة الأبيات السابقة؛ إذ تراوحت بين الغزل والمدح والحكمة والدعاء.

ونختم هذا المحور بالرسالة الثامنة التي تضمنت ستة وعشرين بيتًا، معظمها في الغزل والنسيب، وفي ذكر فضائل الطلبة والمتعلمين، ومنها أبيات في الرجز جاءت لتبين أنّ لأشياخ العلم وطلبة المحاظر نصيبًا مفروضًا في بيت المال وفي أموال الناس؛ لأنهم يقومون بمهمة كفائية، وينوبون عن الناس في تعلّم العلم وتعليمه. ولو لم يفعلوا ذلك لأثِم الجميع، وانقلب الفرض الكفائي فرضًا عينيًّا.

والطريف في هذه التضمينات الشعرية أنها تغطِّي مختلف العصور الأدبية؛ فهي تحيل على الأشعار الجاهلية وعلى أشعار صدر الإسلام وعهد بني أمية وبني العباس، بالإضافة إلى الأشعار الأندلسية والإبداعات الشنقيطية، فالشعر العربي مبثوث فيها في مختلف مراحله ومحطاته. وبذلك نعلم عناية الشناقطة بالعلم وتمكُّنهم من القريض؛ إذ عدُّوه آية الفتوة وعنوان التميز، فاتخذوه سبيلاً لإثارة العواطف، وتهييج المشاعر، واستدرار الأكف، واستنهاض الهمم.

ب- حضور السجع والجِناس

لقد اعتنى أصحاب هذه الرسائل بمختلف الأصباغ البديعية من سجع وتورية وطباق وجناس. وسنقتصر في هذا المقام على تناول الفواصل السجعية والجناسات البديعية.

١- الفواصل السجعية:

إن المتصفح لهذه الرسائل يقرأ خلالها كثيرًا من الفاصلات السجعية التي تُكسب الأسلوب روعة وجمالاً، وتورثه جاذبية وتأثيرًا. والطريف في هذه الفاصلات

ما تمتاز به أحيانًا من الاسترسال وطول النفَس المشعر بتمكُّن الكاتب؛ ففي وصف إحدى هذه الرسائل لأوضاع التلاميذ المؤذِنة بالخطر، والمفصِحة عن حاجتهم الماسة إلى وثبة تضامن ولفتة تعاون تؤالِف بين الكثير من السجعات الرائعة المؤثرة والناطقة باسم الطلاب، حيث تنتظم معبرةً عن مطالبهم المتعددة؛ إذ تؤكد الرسالة ذلك الأمر قائلة:«موجبُه أن لا وطاء لنا سوى الغبراء، ولا رواق سواء الخضراء، ولا كفاء سوى صرصر النكباء أو صوب ديمة هطلاء»[٢].

وفي رسالة أخرى تتكرر ظاهرة الإكثار من السجعات لتكشف هذه المرة عن حرارة التحية وعمق السلام، منبهةً إلى تميُّز جمع النساء؛ يقول صاحب الرسالة: «سلام أشهى من الريحان، وألذُّ من إدراك الحاجة عند الإنسان، ولو تجسَّم كان كالياقوت والمرجان، إلى البِيض الحسان، الناعمات الأبدان، المائسات ميسَ الأغصان، المفترات عن كالأقحوان، الباعثات للغريب الأشجان، اللواتي ما مثلهن بِكر ولا عوان»[٣].

وقد يركن السجع إلى الإيجاز، مكتفيًا بفاصلة واحدة، تلوذ بالمزاح والتنكيت، مبينة مبالغة التلاميذ في استدرار الأُكُفِّ واستمالة القلوب، من ذلك مثلاً قولهم: «فتلقوا كتابنا بالبشاشة والطلاقة والبذل لما بلغت وما لم تبلغه الطاقة»[٤].

وفي بعض نماذج هذه الرسالة يميل التلاميذ إلى الدعاء لمن أحسن إليهم، مؤمِّلين له رزقًا كريمًا وعيشًا طيِّبًا، كما ورد في رسالة ابن رازكة: «رزقكم الله عيشًا تلين مثانيه ومعاطفه، وتدنو منكم مجانيه ومقاطفه»[٥].

وفي معرض تعداد مطالب التلاميذ واحتياجاتهم تزدان هذه الرسالة بسجعات بديعات موشحة ببعض من الكنايات والتلميح مليح، يدفع التعب والكلال، ويحمل على التبسُّم والانكلال، على نحو ما فيه قولهم: «فموجبه إعلامكنَّ بحالنا، وحالنا يكفي عن سؤالنا، فإنا محتاجون إلى التسابيح والأنساع، وما تشتكي من فقده الأضلاع وذات الدخان، وما يعيننا على طاعة الرحمن، وما تجري فيه الأقلام وما يوضع تحت الأقدام».

ومن طرائف هذه النماذج السجعية حرصها البالغ على أن تلصق أسلوب الكاتب بالنص القرآني أو النص النبوي حتى يلتحما في أسلوب واحد، وينسجما في بوتقة واحدة، فيتآلفا ويصالحا بينهما صلحًا، ففاتحة السجعة وطرفها الأول غالبًا ما يكون من إبداع صاحب الرسالة، وخاتمتها وطرفها الثاني يكون من القرآن أو الحديث، على نحو ما في الرسالة الثانية من قول أحدهم: «وعلَّمنا ما لم نكن نعرفه، وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾. وصلى على سيدنا محمد وتابعيه وكرمه، القائل: «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه».

٢- الجناسات البديعية:

لقد تضمنت هذه الرسائل في أبنيتها اللغوية عددًا من الجناسات اللطيفة، جاءت لتضفي عليها صبغة أسلوبية رائعة، تمتع القارئ وتغري المتودد وتقنع المتردد. ومن أمثلة ذلك: ما ورد في الرسالة الأولى من المجانسة بين «الندى» و«الندى»؛ فقد اعتمدت الرسالة جناسًا تامًّا بين هاتين الكلمتين؛ إذ وردت الأولى بمعنى الكرم والسخاء، وجاءت الثانية بمعنى المطر والبلل الذي ينزل في آخر الليل، وقد جاء هذا الجناس ليشحذ أذهان المخاطَبين، ويدفعهم إلى البذل والإنفاق، ويستنهض منهم الهمم، مؤكدًا أن أهل الفضل هم الذين أنعش الله بهم كل يُمن كامن، «وفجر من أكُفِّهم ينابيع الندى، فأغنت المسْنتين عن صوْب الندى»[٦].

وفي هذه الرسالة نفسها نقف على جناسين آخرين ناقصين؛ أولهما تم بين «الهجان» و«الهجين»، وثانيهما ورد بين «اللُّجَين» و«اللَّجِين». وقد ساقهما الكاتب في أسلوب رفيع يُشعر بمكانة العلم وقيمته البالغة، فهو الذي بفضله يتم التمييز بين الغث والسمين، وبين الخائن والأمين، يقول صاحب الرسالة: «والمتعلمون أحق من أُنفق عليهم مهج النفوس، وسواد العيون، لولاهم ما عُرف الهجان من الهجين، ولا فُرِّق بين اللُّجَين واللَّجِين»[٧].

وهذا الأسلوب مُشعر بتمكُّن الطلاب من علم البديع، وقدرتهم الفائقة على

استخدام مصطلحاته في مخاطباتهم الأدبية ورسائلهم إلى الناس.

وفي رسالة أخرى نقرأ جناسًا واضحًا بين كلمتي «شك» و«شك»؛ فالأولى بمعنى إحكام النسج وتقويته، والثانية بمعنى الشك الذي هو ضد اليقين؛ ففي حديث صاحب هذه الرسالة عن شدة عفاف النساء وبعدهن عن الفاحشة يقول: «اللابسات من العفاف دروعًا مشدودة الشك، ولا تضرُّها سيوف من في عفافهن شك»[٨].

الخاتمة

وصفوة القول إن رسالة «اتلاميد» نموذج فني فريد، وأسلوب مدرسي جديد، استحدثه أبناء المحاظر في بلاد شنقيط، تعبيرًا عن همومهم اليومية، وتخفيفًا لمعاناة التعلم والتكرار، وتلطيفًا لأجواء المراجعة والاستذكار، وذلك رغبة في توفير لوازم الحياة المحظرية مما يقوم أحوال الأعرشة في الأحياء الجامعية من أدوات مدرسية ووجبات غذائية وتجهيزات سكنية.

وقد جاءت هذه الرسالة لتعيد النبض إلى النثر الفني، وخاصة فن الترسُّل، الذي يُعدّ هذا النموذج المحظري إحياءً لشكله ومضمونه، وإذكاءً لمنطوقه ومكنونه، إذ يعوّل كثيرًا على السجع والجناس، وعلى التضمين والاقتباس، دون أن ينسى الاستئناس بأجواء المزاح والتنكيت. مما هيَّأ له أسباب السيرورة والرواج.

فهذا المنثور الطلابي مما امتازت به المحظرة الشنقيطية؛ إذ يعدُّ الناطقَ الرسمي باسمها، والمبينَ عن شكلها ووسمها، فهو يمزج إشراقة الابتسام بطهارة الاستطعام، في نهج بديع يزاوج بين التماس الدعم والإعانة، وبين التزام العفة والصيانة، على نحو يشفع سلطان العلم والتقوى بشيوع النكت وتلطيف الأجواء.

فهذا المسطور رسالة مفتوحة إلى المحسنين، همّها الناصب إدخال المسرّة إلى قلوب الناس، من خلال مستطرفات طلابية ترضي القانع والمعتر، وتحمل البائس على أن يبتسم ويفتر.

ملحق

ببعض نصوص رسائل «اتلاميد»

الرسالة الأولى[٩]:

الحمد لله الذي جعل وجود الجود عصـرة النابع والمنجود[١٠]، وأنعش بذوي المآثر كلَّ جد عاثر[١١]، وفجَّر من أكفهم ينابيع الندى، فأغنت المسّنتين عن صوْب الندى[١٢]، والصـلاة والسـلام على محمـد، الذي قال وأصـدِق بمقاله: «الناس كلهـم عيال الله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعيالـه»[١٣]. وبعد، فمن كل أروع شبوب[١٤] راكب من جياد الفهم كل سابح يعبوب[١٥]:

سلام كعرف المسك هبَّت به الصبا وكالروض فاحت بالعشي أزاهره

إلى من اقتنوا قُنن المجد والعُلا، وعمروا دمن الكرم والسـخاء، موجبه أن لا وِطاء لنا سـوى الغبراء[١٦]، ولا رواق سوى الخضـراء[١٧]، ولا كفاء سوى صرصر النكبـاء[١٨]، أو صـوب ديمة هطلاء[١٩]، فتلقُّـوا (كتابنا) بالبشاشـة والطلاقة، والبـذل لما بلغت وما لم تبلغه الطاقة، ظفرتْ بالخير أكفُّكم، وبلَّت ورحبت عليكم البـلاد وطلت[٢٠]، ورزقكم الله عيشًـا تلين لكم مثانيه ومعاطفـه[٢١]، وتدنو لكم مجانيـه ومقاطفـه[٢٢]، لا زلتم بحـورَ المؤمِّلين، وبدورَ المتأملين، غائصـين عيالم البحور الزاخرة، لدرر العلوم الفاخرة، لا كانت ساحتكم بعد خصبها صاحة[٢٣]، ولا زالت روايا المزن تحسـد من أحدكم الراحة، هذا ونحن معدّون لسـد المفاقر، وتجديد آثار المآثر[٢٤]:

كـل بـيـضـاء ذات دل مـليـح تحمل البدر بالجبين الصبيح
ولـهـا فـاحـم أثـيـث وقـدّ كدجى الليل والقضيب المروح
ولـهـا كـل نـظـرة وابـتـسـام طـرف أحـوى وضـوء بـرق لموح

ولتعلموا أنا كفلاءُ لمن أعطانا بآجل الثواب وعاجل الخلف، ولمن حرمنا بآجل

العقاب وعاجل التلف، وانظروا إن شئتم مصداق ذلك في الوعيد الوارد في: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾[٢٥]. والمتعلمون أحق من أُنفق عليهم مهج النفوس، وسواد العيون، لولاهم ما عُرف الهجان من الهجين[٢٦]، ولا فُرِّق بين اللُّجَين واللَّجِين[٢٧]، وبهم قامت السماوات والأرض، وأنارت العَرَصات يوم الحساب والعرض:

من أمكم لرغبة فيكم ظفر ... ومن تكونوا ناصريه ينتصر[٢٨]

خير العطية ما كانت معجَّلةً ... وأكرم الناس من يعطي على عجل

فما رجعتْ بخائبة ركاب ... حكيم بن المسيب منتهاها[٢٩]

الرسالة الثانية[٣٠]:

حمدًا لمن رفع العلم وطلابه، على من اكتفى بالجهل واجتابه[٣١]، كما رفع سماءه ودحا ترابه، الذي أنزل على عبده كتابه، وعلّمنا ما لم نكن نعرفه، وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾[٣٢]، وصلى الله على سيّدنا محمّد وتابعيه وكرَّمه، القائل: «خيركم من تعلّم العلم وعلَّمه»[٣٣]، المستشفَع في المحشر فيشفع، القائل تحريضًا لمن لقوله يسمع: «إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»[٣٤]، وقال أيضًا تحريضًا لكل مطيع تابع، على الإنفاق: «للقمة في جوف جائع»[٣٥].

أمّا بعد الحمد والصلاة والسلام، فمن طلبة العلم سلامٌ أشهى وأبهى وأذفر من الراح واللؤلؤ والعنبر[٣٦]، ومن ارتشاف رُضاب الملاح[٣٧] إذا تذاءبت الأرواح[٣٨] بها سحرًا ومن حاجب قرص براح، انفتقت عنه سحائب الغمام فلاح[٣٩]، إلى الخراعيب العطاميس[٤٠]، المستحق فيهن اعتمال العراميس[٤١]، وإن كان دون وصلهن طلب الأبلق العقوق[٤٢]، والتماس الثريا والفرقدين والعيوق[٤٣]، اللابسات من العفاف دروعًا مشدودة الشك[٤٤]، لا تضرها سيوف من في عفافهن شك، المخبلات من المها مآق[٤٥]، ولهن من الآرام أعناق[٤٦]:

أولاك كأنهن أولاك إلا شوى لصواحب الأرطى ضئالا
وإنّ صواحب الأحداج جم وإنّ لهن أعجازًا ثقالا
وأعناق الظباء رأين شخصًا نصبن له السوالف أو خيالا
رخيمات الكلام مبطنات جواعل في البرى قصبا خدالا
جمعن فخامة وخلوص عتق وحسنًا بعد ذلك واعتدالا
كأن جلودهن مموهات على أبشارها ذهبًا زُلالا[٤٧]

من كل مسحنككة الغدائر[٤٨]، ومن صفتها ما قال الشاعر[٤٩]:

تريك بياض لبَّتها ووجهًا كقرن الشمس أفتق حين زالا
أصاب خصاصة فبدا كليلاً كلا وانغل جانبه انغلالا
وأشنب واضحًا حسن الثنايا ترى من بين نبتته خلالا
كأن رُضابه من ماء كرْمٍ ترقرق في الزجاج وقد أحالا
يشج بماء سارية سقته على صمَّانة رصفا فسالا
وأسحم كالأساود مسبكرًا على المتنين منسدلاً جفالا

اللواتي كأنّ حديثهن سحر بابل، ومن صفتها ما قال القائل[٥٠]:

شرك العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفزِ
وحديثها السحر الحلال لوَ انه لم يجن قتل المسلم المتحرزِ
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ودَّ المحدث أنها لم توجزِ

اللواتي يمشين كأنما يمشين في الأوحال، أو مشي الجِمال تحمل الأثقال، من كل خريدة من صفتها قول القائل[٥١]:

شمس مقدرة في خلق جارية كأنما كشحها طي الطوامير
كأنها حين تمشي في وصائفها تخطو على البيض أو حمر القوارير

العاطيات بلطيفها اللي، ومن صفتها ما قال غيلان مي[٥٢]:

خـراعـيـب أمـلـود كـأنّ بـنـانـهـا نبات النقا تخفى مـرارًا وتظهر

تـرى خلفها نصفًا قناة قويمة ونصفًا نقى يرتج أو يتمرمر

تـنـوء بـأُخـراهـا فـلأيًـا قيامُـهـا وتمشي الهوينا من قريب فتبهر

موجبـه منهم أنهـم ذوو قلوب، تتـوق إلى خطاب كل مدلال عـروب[٥٣]، ولما كان السايلون يُبدون المقصود، ولا يكتفون بمقصور الكلام عن الممدود[٥٤]، وكان الفصحاء يبغون الإيجاز في الكلام، مع أنه ربما حصل به التمام، أهملت المقصود لعلمه عنه غير عاجز، وحذف ما يعلم جائز[٥٥].

الرسالة الثالثة[٥٦]:

الحمد لله الذي جعل الكرم من أفضل ما تُمدح به الأمم، والصلاة والسلام على سـيدنا محمد سـيّد العرب والعجم، المبعوث لسائر الأمم، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فمـن أهل البيان الملتمسـين بالنحـو الأحاديث والقرآن، سـلام أشـهى من الريحـان، وألـذُّ مـن إدراك الحاجـة عند الإنسـان، ولـو تجسَّـم كان كالياقوت والمرجان، إلى البِيض الحسـان، الناعمات الأبدان، المائسـات ميس الأغصـان، المفـترات عن كالأقحـوان، الباعثات للغريب الأشـجان، اللواتي ما مثلهن بكر ولا عوان[٥٧]، الوارد فيهن قول الشاعر الذرب اللسان[٥٨]:

وبالعرصة البيضاء إن زرت أهلها مهى مهملات ما عليهن سائس

خرجن لحب اللهو من غير ريبة عفائف راجي الوصل منهن آئس

ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبة كما كرهت صوت اللجام الشوامس

وقول الآخر[٥٩]:

جمعن فخامة وخلوص عتق ولينًا تحت ذلك واعتدالا
رخيمات الكلام مبطنات جواعل في البرى قصبًا خدالا
كأنّ جلودهن مموهات على أبشارها ذهبًا زلالا

وقول الآخر[٦٠]:

وبيض نضيرات الوجوه كأنما تأزَّرن تحت الريط من رمل عالج
يدرن مروط الخزِّ ملأى كأنها قصار وقد طالت بأيدي النواسج

وقول الآخر[٦١]:

بيض أوانس ما هممن بريبة كظباء مكةَ صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقًا ويصدُّهن عن الخنا الإسلام

فموجبه إعلامكن بحالنا، وحالنا يكفي عن سؤالنا، فإنا محتاجون إلى التسابيح والأنساع[٦٢]، وما تشتكي من فقده الأضلاع، وذات الدخان، وما يعيننا على طاعة الرحمن، وما تجري فيه الأقلام، وما يوضع تحت الأقدام. قال الشاعر[٦٣]:

تلاميذ شتى ألَّف الدهر بينها لهم همم قصوى أجل من الدهر
يبيتون لا كَنٌّ لديهم سوى الهوى ولا من سرير غير أرمدة غبر

وقول الآخر[٦٤]:

وفي الجلود وفي الأوبار حاجتنا جدًا ومن حاجنا سكر ومفتول
لا تمنعنك من المعروف قِلَّتُه فكل ما سد فقرًا فهو مقبول

وقول الآخر[٦٥]:

ألا إننا جئنا نريد لبانة على عجَل بها نؤم الخرائدا

قصدنا الغواني لا أساريرَ عندنا وما خاب من أَمَّ الخرائد قاصدا

الهوامش

(*) **المعهد العالمي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط موريتانيا.**

(١) أخرجه الترمذي تحت رقم ٣٥٣٥، وقال: حديث حسن صحيح، والبيهقي تحت رقم ١٢٢٥، والطبراني تحت رقم ٧٣٧٣.

(٢) انظر نص الرسالة في ص١٢٣ من هذا البحث.

(٣) انظر نص الرسالة ص ١٢٦ من هذا البحث.

(٤) انظر نص الرسالة ص١٢٣ من هذا البحثز

(٥) انظر نص الرسالة ص١٢٣ من هذا البحث.

(٦) انظر نص الرسالة ص١٢٣ من هذا البحث.

(٧) انظر نص الرسالة ص١٢٤ من هذا البحث.

(٨) انظر نص الرسالة ص١٢٤ من هذا البحث.

(٩) وقد نسبها الخليل النحوي في كتابه **بلاد شنقيط المنارة والرباط** إلى سيد عبد الله بن رازكه.

(١٠) المنجود: هو المتعب الذي يحتاج إلى النجدة.

(١١) الجد العاثر: هو الحظ التعس.

(١٢) الندى: المقصود به هنا المطر.

(١٣) هذا الحديث أورده الطبراني في **المعجم الكبير** عن عبد الله بن مسعود وعن أنس بن مالك، وأورده بلفظ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله». كما أخرجه البيهقي في **شعب الإيمان** ٤٣/٦.

(١٤) الشبوب: المحسن للشيء.

(١٥) اليعبوب: الفرس الطويل السريع، أو الجواد السهل في عدْوه. أو البعيد القدر في الجرْي.

(١٦) الوطاء: ككتاب خلاف الغطاء. والغبراء: التراب. والمقصود أنهم لا فراش لهم سوى وجه الأرض.

(١٧) الرواق: مقدَّم البيت، والخضراء: السماء. والمقصود أنه لا بناء لهم يحفظهم من الريح والأمطار.

(١٨) الكِفاء ككتاب: سترة في أعلى البيت إلى أسفله من مؤخره. أو كساء يلقى على الخباء حتى يبلغ الأرض. يقال: أكفأت البيت: إذا جعلت له كفاءً؛ والصرصر: الريح الشديدة؛ والنكباء ريح انحرفت ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال، والمقصود هنا: أنهم لا يجدون ما يدفعون به الحرّ والبرد.

(١٩) الديمة: السحابة، والهطلاء: الكثيرة الماء.

(٢٠) طلت بمعنى أمطرت مطرًا ضعيفًا خفيفًا.

(٢١) كناية عن طيب العيش ورغده.

(٢٢) المقاطف: ما يقطف، وهي قريبة من سابقتها؛ إذ المقصود منها رغد العيش وطيبه.

(٢٣) هذا دعاء لهم بدوام الخصب ولين العيش.

(٢٤) بحثنا عن هذه الأبيات جهدنا، ولم نتمكن من تخريجها.

(٢٥) سورة النساء الآية ٣٧.

(٢٦) الهجان ككتاب: الخيار، ومن الإبل البيض، والبيضاء والرجل الحسيب، والهجين كأمير: اللئيم، أو من أبوه خير من أمّه، أو من جمع في أصله بين سلالتين مختلفتين، وعنصرين متباينين.

(٢٧) اللُّجين كزُبير: الفضة، واللَّجين كأمير: زبد أفواه الإبل.

(٢٨) انظر **المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية** للعيني (٣١٦/٢). وهذا الرجز غير منسوب في جميع كتب النحو. انظر **أوضح المسالك** ٢٩١/٢. **والارتشاف** ٢٢٣/٢ **وشرح الأشموني** ٢١٧/١، ومعنى البيت: من قصدكم لأجل رغبة في إحسانكم، فقد ظفر بمقصوده، ومن يكون أنتم تنصرونه فقد انتصر على عدوّه. ومحلّ الشاهد فيه قوله: لرغبة، فإنه مفعول له، قد برزت فيه اللام، وهذا حجة على من منع إبراز اللام عند استكمال الشروط في المفعول له، فهذا وإن كان جائزًا لكن نصبه أرجح.

(٢٩) هذا البيت للقحيف بن سليم العقيلي، وابن المسيَّب هذا أحد بني قشير، وهو بالفتح على زنة اسم المفعول، وكذا كل مسيب عند العرب إلا والد سعيد بن المسيّب، ففيه الفتح والكسر، انظر **شواهد المغني** للسيوطي ٣٣٩/١.

(٣٠) وهي من إبداع الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي.

(٣١) اجتاب القميص: لبسه، والمقصود هنا أنه اختار الجهل وفضّله على العِلم. انظر **القاموس** مادة جاب.

(٣٢) سبأ ٣٩.

(٣٣) أخرجه البخاري والترمذي عن علي رضي الله عنه، انظر **الجامع الصغير** ١٢/٢.

(٣٤) تقدم تخريجه.

(٣٥) بحثنا عن هذا الحديث، ولم نتمكن من تخريجه، وعثرنا في بعض الكتب على هذا اللفظ «لوضع لقمة في جوف جائع أفضل عند الله من بناء ألف مسجد». كما أورده السيوطي بلفظ آخر، وهو: «من لقم أخاه لقمة حلوة، ولم يكن ذلك من مخافة شره ورجاء لخيره صرف الله عنه سبعين بلوى في القيامة»، قال الخطيب: هذا الحديث منكر جدًا، انظر **اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، للإمام السيوطي ٢٤٥/٢. كما أورد رواية أخرى، ولفظها: «من لقم أخاه لقمة حلوى لا يرجو بها خيره ولا يتّقي بها شرّه، لا يريد بها إلا الله وقاه الله مرارة الموقف يوم القيامة». **اللآلي المصنوعة**، الجزء والصفحة المذكوران.

(٣٦) الأذفر: هو الذكي الرائحة، والعنبر: نوع من الطيب معروف.

(٣٧) الرُّضاب كغراب: الريق المرشوف أو قطع الريق في الفم، يقال: رضب ريقها: رشفه، كترضبه، والملاح جمع مليحة، وهي المرأة الحسناء.

(٣٨) تذاءبت بمعنى هبّت من كل جهة، والأرواح جمع ريح.

(٣٩) قرص براح: هو قرص الشمس، وانفتقت: انفرجت وانفتحت، والمقصود الاستمتاع بمنظر ممتع يتم فيه انفصال الشمس عن الغمام.

(٤٠) الخراعيب: جمع خرعوب وخرعوبة، بضمهما وهي الشابة حسنة الخلق الرخصة، أو البيضاء اللينة الجسيمة اللحيمة. والعطاميس: جمع عيطموس، وهي التامة الخلق من الإبل والنساء، والمرأة الجميلة والحسنة والطويلة.

(٤١) اعتمل المطية: حملها على السير، والعرامس: جمع عرميس بالكسر، وهي الناقة الصلبة.

(٤٢) الأبلق: هو الأبيض والعقوق الحامل، وهذا مثل تضربه العرب في استحالة الأمر؛ إذ يستحيل أن يوجد جبل حامل.

(٤٣) هذه منازل معروفة في السماء، والتماسها من المستحيل، وهو مثل تضربه العرب للتعبير عن الأمر المستحيل.

(٤٤) الدروع: جمع درع، وهي بدلة من الحديد يتوقّى بها المحارب الأعداء، والشك هو النسج.

(٤٥) المآق: جمع مأق، وهو ما يلي العين من الأنف، والمها: بقر الوحش، والمقصود به هنا النساء.

(٤٦) الآرام جمع رئم، وهو الظبي الخالص البياض، والعرب تشبّه المرأة بالظبي وخاصة الجيد.

(٤٧) هذا مقطع من قصيدة لغيلان يمدح بها بلال بن أبي بردة، ومطلعها:

أراح فريق جيرة الجمالا كأنهم يريدون احتمالا

وهي مطولة تقع في ١٠٠ بيت. انظر: **ديوان ذي الرمّة**، قدّم له وشرحه أحمد حسن سبيح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص١٥٧-٢٠٤.

(٤٨) المسحنككة كما في **القاموس**: شديدة السواد، والغدائر: جمع غديرة، وهي ضفائر الرأس.

(٤٩) **ديوان غيلان**، مرجع سابق، ص٢٠٢.

(٥٠) هو ابن الرومي الشاعر المعروف.

(٥١) هذه الأبيات لعبّاس بن الأحنف.

(٥٢) **ديوان غيلان**، مرجع سابق ص١٠٩.

(٥٣) المدلال: مفعال صيغة مبالغة من دل المرأة ودلالها، وهو تدللها لزوجها، تريه جراءة عليه؛ تغنج وتشكل، كأنها تخالفه وما بها خلاف. وقد دلت تدل، والدل كالهدي من السكينة والوقار وحسن المنظر، والعروب: المرأة المتحببة إلى زوجها.

(٥٤) في هذا الكلام تورية لطيفة وتوظيف واضح للثقافة الشنقيطية القائمة على قراءة **المقصور والممدود** لابن مالك.

(٥٥) هذا جزء من شطر بيت من **ألفية ابن مالك**، وهو قوله:

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما

وهذا هو البيت السادس والثلاثون بعد المائة من **الألفية**. وهو في باب المبتدأ والخبر. وقد نبه ابن مالك ضمنه على جواز حذف الخبر والمبتدأ إذا دل دليل على ذلك.

(٥٦) وتنسب إلى الهادي بن بدي، وذلك ما أفادنا به الأستاذ محمد المصطفى، الموظف بمكتبة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، في مقابلة معه بتاريخ ٢٠١٢/٠٤/٢١م، كما أمدنا الطالب الحاج بن محمد بن دحان بنسخة من هذه الرسالة نقلها من كناش والده، والنسختان متفقتان في الأسلوب وفي العبارات، وفي نسبة هذه الرسالة إلى الهادي بن بدي. والرسالة بهذه الصيغة يبدو أنها متداولة في المحاظر العلوية، وفي المحاظر التندغية الأربعينية.

(٥٧) العوان من النساء: التي كان لها زوج، جمعها عون، والعرب تقول: العوان لا تعلم الخمرة، أي إنها مجرّبة للأمور وتعلم ما تفعل، والمقصود بالبكر والعوان الصغيرة والكبيرة.

(٥٨) هذه الأبيات وردت في **معجم البلدان** ١٠٢/٤ في مادة (عرص)، حيث قال: «عرصة بفتح أوله وسكون ثانيه وصاد مهملة، وهما عرصتان بعقيق المدينة، قال الأصمعي: كل جوبة متسعة ليس فيها بناء فهي عرصة، وقال غيره: العرصة: ساحة الدار، سميت لاعتراص الصبيان فيها، أي للعبهم فيها». وفي آخر كلامه على هذه المادة المعجمية قال: «وقال بعض المدنيين...»، ثم أورد الأبيات المذكورة، وأضاف إليها اثنين آخرين وحذف البيت الأخير، والبيتان المضافان هما:

يردن إذا ما الشمس لم يخش حرها خلال بساتين خلاهن يابس

إذا الحر آذاهن لُذْن ببحرة كما لاذ بالظل الظباء الكوانس

(٥٩) هذه الأبيات لغيلان ذي الرمّة من قصيدة مطلعها:

أراح فريق جيرتك الجمالا كأنهم يريدون احتمالا

انظر **ديوان غيلان** تقديم وتحقيق د. واضح الصمد، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ١٨٨/٢.

(٦٠) هذان البيتان وردا في كتاب **زهر الآداب وثمر الألباب** للحصري القيرواني ٣٩٢/١، شرح علي محمد البجاوي ط١، ١٩٥٣م، وأورد معهما ثالثًا بألفاظ تختلف عنها يسيرًا، وسنورد ألفاظه بنصها:

وبيض نضيرات الوجوه كأنما تأزَّرن دون الأُزر رملات عالج

خدال الشوى لا تختشي غير خلقها إذا الرسح لم يصبرن دون المنافج

يذرن مروط الخز ملأى كأنها قصار وإن طالت بأيدي النواسج

وخدال الشوى: ممتلئة الأطراف مستديرتها، والرسح: جمع رسحاء، وهي قليلة لحم العجز والفخذين. والمنافج: حشايا توضع فوق الأرداف.

(٦١) هذان البيتان لبشّار بن بُرد. انظر **الديوان** ص٦٠٣ بشرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

(٦٢) التسابيح: جمع تسبيح، حسانية أصلها تسبيح مصدر سبح، وسمّيت بها الآلة التي هي السبحة، وكانت التسابيح تزين بخطوط فضية، وهو ما يعبرون عنه بالحسانية بقولهم: «تسبيح مرشوش»، ومعناه سبحة مرصّعة بخيوط فضية، ولعل اتخاذها يومئذ من كمال الفتوّة.

والأنساع: جمع نسعة، حسانية أصلها عربي، وتستخدم لعدة أشياء، منها شدّ الرحال على الإبل، والمقصود بها هنا الآلة التي تشد بها السراويل، وغالبًا ما يستخدمها الظرفاء مكان القشط، وهي تصنع من جلود الغنم أو الوحوش، وتكون مرصعة بألوان مختلفة الألوان.

(٦٣) هذه الأبيات متداولة بكثرة عند الشناقطة في وصف أبناء المحاظر، ولم نتمكن من معرفة قائلها، مع أنها منتشرة في معظم المدوّنات التي تتناول المحظرة الشنقيطية، والواضح أنها من إبداع بعض الشناقطة.

(٦٤) الواضح من صياغة هذه الأبيات أنها من إنتاج بعض أبناء المحاظر الشنقيطية، فقد وردت فيها كلمة «مفتول»، وهي حسانية يقصدون بها نوعًا من الشاي الجيّد.

(٦٥) يفهم من بنية هذه الأبيات وصياغتها كذلك أنها من إبداع أبناء المحاظر الشنقيطية.

سعود بن هذلول

(١٣٢٤- ١٤٠٣هـ /١٩٠٦-١٩٨٣م)

مؤلّف كتاب تاريخ ملوك آل سعود (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) (*)

د. عبدالرحمن الشبيلي(**)

مـن منظور هاوٍ للتاريخ لا متخصّـص فيه، يُكتب هذا المقال عن عَلَم مخضـرم، يجمـع بين كونه أمـيراً ومؤلّفاً لكتاب، لعله الوحيد في موضـوعه التاريخي لأحد أفراد الأسرة المالكة، حتى صار يُطلق عليه «مؤرِّخ آل سعود». واستمرّ المؤرّخون يقتبسون منه مما زاد من أهميّته مع مرور السـنوات، وتمكّن مؤلّفه قبل وفاته بعام واحد من إعادة إصـداره، وإضافة الأحداث التي جدّت عليه بعد طبعته الأولى، كاعتداء جهيمان على المسـجد الحرام (٢٠ نوفمبر تشـرين الثاني ١٩٧٩م). والكتاب في ٤٢٥ صـفحة، من تقديم الأديب الموسوعي محمد ناصر العبودي.

وفضـلاً عمّا عُرف عنه من البسـاطة في عرض محتوى كتابه، ومن رغبته -كما ذكر في المقدمة- في تسـجيل التاريخ دون زيادة أو نقصـان، فإن المؤلّف لم يتبع المنهج التقليدي في سـرد الحوادث الذي سـار عليه المؤرّخون النجديّون الأوائل، واعتمد على أبـرز المراجع المتاحة في حينه، وعلى السـماع من المعمَّرين الذيـن أدركهم في حياته، وقد عاصـر وشارك في بعض الأحداث المتأخّرة التي يُعدّ مرجعاً أوّليًّا فيها، وكان مما انفـرد بإيراده مثلاً في طبعته الأولى تفاصـيل حادثة اعتـداء ثلاثة يمنيّين في الحرم

المكّي الشـريف على الملك عبدالعزيز، ووليّ العهد الأمير سـعود (حج عام ١٩٣٥م)، وكان المؤلّف شاهد عيان للحادثة.

أدرك، من خلال الإطار الزمنيّ الذي عاشـه، معظم جيل التأسـيس الأول الذي صنع الأحداث أو شارك فيها، أو روى أخبارها عن قرب، وعرف بعض زعماء القبائل وشخصـيّات المجتمع، واجتمع برجالات الأسـرة الحاكمة، ومنهم الإمام عبدالرحمن والد الملك المؤسّـس عبدالعزيز وإخوانه وأنجالهم، وناصـر بن سـعود بن فرحان (ت ١٩٣٠م تقريبـاً)، وعبدالله بن جلوي (ت١٩٣٥م)، وعبدالعزيز بن عبدالله بن تركي (ت١٩٣٦م)، وسـعود بن عبدالعزيز (الملقّب بسـعود الكبير ت١٩٥٩م)، وسلمان بن محمد (ت ١٩٧٤م)، وعبدالعزيز بن مساعد بن جلوي (ت١٩٧٧م).

كان شخصـيّة اجتماعيّـة، ودوداً محبّاً لمجالسـة الناس ومعرفـة أحوالهم، ملمّاً بقبائل الجزيرة العربيّة وجغرافيّتها وتاريخها المعاصـر، والتقى المؤرّخين السـعوديّين والأجانـب الزائريـن مـن جيله، ولم ينفـرد بما كتب، فاتّخـذ من العارفـين بالتاريخ الشـفوي والمكتوب من استشارهم؛ من أمثال محمد العبودي، وعبدالرحمن الرويشد (ت ٢٠١٦م)، ممـن لهـم إحاطة مشـهودة بالتاريـخ الوطني والاجتماعي السـعودي الحديث، وهي جميعاً عوامل رغَّبته مجتمعةً بالاهتمام بكتابة التاريخ.

في تقديمه للكتاب، استعاد العبودي مقولة للعلامة حمد الجاسر بأن «أكثر الذين كتبـوا في تاريـخ الجزيـرة العربيّة، وفي التاريخ السـعودي على وجه الخصـوص، هم مـن الأجانـب»، ولذلك احتفى العبودي بتصـدّي المؤلّف لمهمّة تأريخ بلاده، مسـتفيداً مـن معرفته بمجريات الأمور وبظروف المجتمع وأسـماء المواقـع والقبائل والزعامات السياسيّة المجاورة، وأثنى على نهجه في رصد الحوادث وتحليل أسبابها ونتائجها وفق الأسلوب الحديث في تدوين التاريخ.

وَممـا امتاز به من جهد: الجمع بين ميدانين رئيسـين في دراسـات التاريخ؛ هما سـرد الأحداث وروايتها، وسِـيَر الشخصـيّات التي صـنعتها، حيث أرّخ لأبرز مفاصل الدولـة منـذ قيامها قبل ثلاثة قـرون، في حين خصّـص حكّامها، كما يـدلّ عليه عنوان الكتاب، بنُبذٍ مرجعيّة من تراجمهم.

كان فيلبـي من المؤرخين الغربيّين الذين التقوا به، واسـتفاد مـن وثائق يقتنيها، وأثنى عليـه في كتابه (**الذكـرى العربيّـة** ١٩٥١م Arabian Jubilee)، وقال إنه

كنز ثمين للمعلومات النافعة، وبخاصة بالنسبة للغموض الذي يتعلق بفروع الأسرة التي ينتمي هو نفسه إلى أحدها».

وكان الشيخ حمد الجاسر، ممن اطّلع على الكتاب بعد صدور طبعتيه، واستشهد به في بعض قراءاته التاريخيّة ومطالعاته لكتب الباحثين، وكان مما قاله عنه:

«والأمير سعود (١٩٠٦-١٩٨٣م) له مؤلَّف دعاه **تاريخ ملوك آل سعود**، نُشر سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م في طبعته الأولى، انتهى فيها إلى ذِكر وفاة الملك المؤسس عبدالعزيز صباح يوم الاثنين، التاسع من نوفمبر ١٩٥٣م، وأشار إلى تولّي الملك سعود وانتهى. ثم أصدر طبعته الثانية عام ١٩٨٢م بإضافات كثيرة، انتهى فيها إلى ذِكر حوادث سنة ١٩٨٠م. ومع أن المؤلِّف اعتمد كثيرًا على مَن تَقَدَّمَه، إلا أنَّ لإضافاته المتعلِّقة بحياة الملك المؤسِّس محلَّها لدى المعنيِّين بالتاريخ، لكونه من أسرته، ولمعاصرته له، ولأنه من مرافقيه ورجال دولته». أهـ.

التقاه كاتب المقال مرّات عدة، كانت أولاها عام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م حينما كان أميراً لمنطقة القصيم، وسجل معه حديثاً إذاعيّاً عُرض في حينه، وتلقّى منه يومذاك الطبعة الأولى من كتابه، وأجرى معه عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م لقاءً تلفزيونيّاً مطوّلاً (ما زال محفوظاً)، وكان في تلك الأيام قد أنهى إضافات كتابه.

وروى في اللقاء العديد من الذكريات عن سيرة الملك عبدالعزيز، وعن جملة من الحوادث التي شهدها أو شارك فيها، والتحدّيات التي واجهها تأسيس المملكة العربيّة السعوديّة من القوى الإقليميّة المناوئة، وذكر أسماء عدد ممّن أسهموا في تأسيس الدولة، وأثبت ما تأكّد لاحقاً من أن إجمالي من اعتلى سور الرياض مع الملك عبدالعزيز أربعون فارساً، توفي آخرهم، وهو الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، عام إجراء المقابلة (١٣٩٧هـ) ومعهم عشرون مرافقاً.

واستعرض جزءاً من سيرة الملوك الثلاثة: سعود وفيصل وخالد، الذي حصل التسجيل في عهده، وكشف الحديث اطّلاعَه على كتب المؤرخين، وبخاصة خير الدين الزركلي **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**، (أربعة أجزاء)، ومنير العجلاني **تاريخ البلاد العربيّة السعوديّة**، (خمسة أجزاء)، وعبدالله محمد البسّام **تحفة**

المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، ومحمد أمين التميمي، واضع نواة مشجّرة العائلة المالكة. وتحدّث عن مخطوط التميمي في التاريخ، ربما قصد بها مذكّراته الشخصية التي دوّنها بعنوان **لماذا أحببت ابن سعود؟** وأهداها الى الملك عبدالعزيز أثناء زيارته لمصر (١٩٦٤م)، ونشرتها دارة الملك عبدالعزيز (١٩٩٩م)، وتحدّث عن شاعريّة الإمام تركي بن عبدالله آل سعود مؤسّس الدولة السعوديّة الثانية (ت١٨٤٣م)، مُستشهداً بقصيدته المعروفة:

طار الكرى من موق عيني وفرًا ... وفزّيت من نومي، طرا لي طواري

سِرْ يا قلم واكتب على ما تورّا ... أزكا سلامٍ لابن عمي مشاري

إلى أن قال الإمام تركي عن سيفه الشهير «الأجرب»، الذي أُودع عند الأسرة الخليفيّة في مملكة البحرين، وأُهدي إلى الملك عبدالله :

يوم ان كلٍّ من خويه تبرّا ... حطّيت الاجرب لي خويٍّ يباري

وأشاد الأمير سعود بقريحة الشاعر الشعبي محمد عبدالله العوني (ت١٩٢٣م) صاحب الملحمة (المطوّلة) الشعريّة، التي وثّق بها توحيد المملكة العربيّة السعوديّة، ووصفه بأنه «متنبّي زمانه» بالنسبة للشعر النبطي، واستشهد بالأُهزوجة المشهورة التي نظمها قُبيل وقعة الشنانة (قرب الرَّسّ ١٩٠٤م)، وما تزال تُستعاد في العرضات الوطنيّة:

منّي عليكم ياهل العوجا سلام ... واختصّ ابو تركي عمى عين الحريب

وتعبير «العوجا» يُقصد به الدرعيّة (العاصمة الأولى للدولة السعوديّة) يَرِد كثيراً في الشعر النبطي وفي بعض الفصيح، كما في قصيدة لخالد الفرج. و«أبو تركي» كُنية الملك عبدالعزيز، فتركي أكبر أبنائه (شقيق الملك سعود)، ولد عام ١٩٠٠م، يسمى تركي الأول، ولاّه والده إمارة القصيم وعمره سبعة عشر عاماً، وهو أول حاكم إداري من أبناء الملك المؤسّس يتولّى إمارة إقليم، وتوفي سنة ١٩١٩م في وباء الحمّى الإسبانيّة التي أصابت شبه الجزيرة العربيّة، وسُميت «سنة الرحمة».

وقال ابن هذلول: إنه يتذكّر في طفولته زيارة الكابتن الإنجليزي وليام شكسبير عام ١٩١٥م قادماً من مقر عمله السياسي في الكويت، في عام معركة «جراب» التي

رغـب أن يحضـرها، فقُتل فيهـا. (وجراب موقع معـروف، يقع شـمال الرياض على مقربـة من المجمعـة والزلفي). وتطرّق في المقابلة إلى علاقة نجـد مع الأتراك، وإلى تأسـيس المملكـة العربيّة السـعوديّة في مرحلتها الثالثة المعاصـرة ورجالاتها، وقصـة تجريد الأحسـاء والقطيف من الترك، واسـتخلاص شمال القصـيم من موالاة أمير حائل ابن رشيد.

وأتـى في حديثـه علـى ذكر بعض من عمـل في معيّة الملـك؛ من أمثـال عبدالله السـليمان الحمدان، وأخيه حمد السليمان، وعبدالله المحمد الحمدان (أبو عليوي)، ومحمـد بـن دغيثر، وعبدالرحمن بن زيد، ومحمد بن شـلهوب، وعبدالله بن نفيسـة (عمعـوم)، وعبدالرحمن الطبيشـي، وإبراهيم بن جميعة، وفهد بن معمّر، وفيصـل ابن حشـر، ومحمد بن سحمي بن حشر (وهما من آل عاصم من قحطان)، ومشاري ابن بصيّص (من بريه من مطير)، ومهدي بيك المصلح (أول مدير للأمن العام).

ومن بين من خصّـهم بالذكر والإشـادة بتاريخهم من القادة: الشريف خالد بن منصـور بن لؤي العبـدلي أمير الخرمة قديماً (ت ١٩٣٢م)، ومحمد بن هندي شـيخ قبيلة عتيبة آنذاك (ت ١٩٣٣م).

والمقابلـة ثريّة بمعلومات ضـيفِها واطّلاعـه، أُتيحت قبل ثلاثة أشـهر من مركز الشـيخ حمد الجاسر الثقافي على قناة اليوتيوب بعد مرور أربعين عاماً على إجرائها، وحظيت بكثافة المشاهدة.

شخصـيّة المقـال: هو سـعود بن هذلول (مـن فرع آل الثنيّان)، يتّصـل مع فروع الأسرة الحاكمة في جدّها الأول سعود بن محمد بن مقرن، والد مؤسس إمارة الدرعيّة (الدولة السعوديّة الأولى)، ووالده هو هذلول بن ناصر بن ثنيّان، المقتول عام ١٩٠٦م في «روضـة مهنّا» في منطقة القصيم، وهي معركة مبكّرة فاصلة وقعت بين أمير نجد آنـذاك (الملك) عبدالعزيز وأمير حائل حينئذ عبدالعزيز بن متعب بن رشـيد، الذي تُوفي فيها.

وُلد عام ١٩٠٦م (تاريخ ولادة الملك فيصـل، شـريكه في الرضـاعة) بُعيد مقتل والده، وحضـر الأواخر من غزوات حقبة التأسـيس، ومنها معركتا «السـبلة والدبدبة

١٩٢٩م»، والمناوشات مع اليمن عام ١٩٣٤م في عهدي الملك عبدالعزيز والإمام يحيى حميد الدين، وتولّى إمارة المنطقة الشماليّة الغربيّة (تبوك ثم ينبع) في عهد الملك عبدالعزيز، وإمارة منطقة القصيم في عهد الملك سعود، وتوفي عن ثمانية وسبعين عاماً ميلاديّاً، مخلّفاً- بحسب المؤرّخ الرويشد- ثلاثة عشر من الأبناء وعشراً من البنات.

(*) سبق نشر المقال موجزاً في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١ / ١ / ١٤٣٩هـ (٢١ / ٩ / ٢٠١٧م) بمناسبة اليوم الوطني السعودي، ثم زيد عليه وأُعدّ للنشر هنا.

(**) باحث سعودي.

سجل الندوة العلمية : عبدالله العثيمين مؤرخًا وأديبًا؛ الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية، ١٤٣٨هـ، ١٣٥ص

جمع الدكتور عبدالله العثيمين، رحمه الله، صفات عدَّة في ثقافته؛ فهو المؤرخ، وهو المترجم، وهو الأديب، وهو الشاعر، وهو الحامل لهموم أمّته، سطَّر مشاعره تجاهها في كتبه ومقالاته وأشعاره.

وقد تنادت ثُلَّة من أصدقائه ومحبيه، من أقطار شتَّى، في ندوة أقامتها الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية، التي كان أمينًا عامًا لها قرابة العشرين عامًا، لتذاكُر مآثره والحديث عمَّا قدمه من خدمات جليلة للثقافة العربية والإسلامية؛ من خلال كتاباته وتحقيقاته التاريخية، وتآليفه الأدبية والشعرية، ذاكرين خصالة ومناقبه الفاضلة وذكرياتهم معه.

فتحدث الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن صالح الهلابي من السعودية عن عبدالله العثيمين مؤرخًا؛ وأن ميدان تخصصه في مرحلة الدراسة العليا كان التاريخ الحديث للجزيرة العربية، وتحديداً في قيام الدولة السعودية الأولى بناءً على الاتفاق السياسي الديني المشهور بين أمير الدرعية محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب. وتتابع دراسات العثيمين عن تاريخ الجزيرة العربية، فعرض الدكتور الهلابي بعضًا منها، مبينًا أن العثيمين كان يتبع المنهج النقدي في كتاباته، ولم يكن مجرد ناقل للتاريخ.

وعـن عبـدالله العثيمـين المحقـق؛ ذكر الدكتـور أيمن فؤاد سـيد من مصـر أن العثيمين رحمه الله تبنى مشروعًا علميًا يهدف إلى نشر النصوص الأصلية التي تؤرخ للدولة السعودية الأولى وبداية حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وبدأ ذلك المشروع بتحقيـق كتـاب **لمع الشـهاب في تاريـخ محمـد بن عبدالوهاب** لحسـن جمـال الدين الريكي، ثم كتاب **كيف كان ظهور شـيخ الإسـلام محمد بـن عبدالوهاب**، من تأليف سليمان النجدي.

وفي مجـال الترجمة تحدث الدكتور خالد بن حمود السـعدون من الكويت، فذكر أن العثيمـين اسـتكمل شـروط المترجم المتميِّز؛ فهو ضـليع في اللغتـين: المنقول منها، والمنقول إليها. وهو متبحِّر في مواضيع النصوص التي ترجمها؛ إذ كان يختارها وثيقة الصـلة بتخصصه الأكاديمي ومجاله البحثي الذي كان فارسًـا من فرسانه، دارسًا، باحثًا، مؤلفًا متابعًا. حتى ليمكن القول إن معرفته بالموضوعات التي ترجمها أوسع من معرفة كاتبيها، فلا يستغرب لهذا أن كثرت استدراكاته على نصوص أولئك الأجانب، فحفلت هوامش الترجمات بالكثير من التعريفات والإيضـاحات والتصـويبات. وغدا بذلك شريكًا لكاتبي تلك النصوص.

وفي الجانب الأدبي والشـعري تحدث الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق من السـعودية عن الوطنية في شـعر عبدالله العثيمين، ويقول إنه قد شـغلته قضـايا أمته كثيرًا حتى صارت هاجسًا يؤرِّقه إلى درجة لا يصدقها إلا من عرفه عن قرب، وقد بثَّ مشـاعره في دواوينه الشـعرية، متحدثًا عن هموم الأمة العربية عامة، وعن الجزائر والعراق وسـوريا ومصـر.. وكان لقضـية فلسـطين، أم القضـايا العربية والإسلامية النصيب الأوفر من أشعاره الوطنية.

وليس بعيدًا عن ذلك تحدثت الدكتورة لويزا بولبرس من المغرب عن العروبة بين الشك واليقين في شعر عبدالله العثيمين، وتحدث الدكتور إبراهيم عبدالرحمن المطوع، من السعودية، عن ملامح التجربة الشعرية عند عبدالله العثيمين.

وأفرد الدكتور أحمد بن محمد الضبيب، من السعودية، الحديث عن الهم العربي عند عبدالله العثيمين؛ فقد رافق الهمُّ العربي العثيمينَ وعاش معه طوال حياته؛ فكان متحمسًا لقضايا أمته أشد التحمس، ويغار عليها أشد الغيرة، ويتحدث دومًا عن الصراع بين الغرب والأمة العربية والإسلامية، وهو يرى أن هجوم الغرب على بلادنا العربية ليس هدفه المصالح الاقتصادية والسياسية فحسب، وإنما يحمله على ذلك عداء ديني متجذر وعقيدة لاهوتية يتبناها المحافظون الجدد، وبخاصة في الولايات المتحدة.

وبقدم الدكتور عباس بن عبدالله الجراراي، مستشار ملك المغرب، شهادة وفاء وعرفان لروح الدكتور العثيمين، مستذكرًا الروابط الحميمة التي جمعت بينهما، والذكريات الحلوة والجميلة التي ارتسمت في الذهن والوجدان.

وتحدث الدكتور أحمد مطلوب، من العراق، عن لقاءاته بالدكتور العثيمين، رحمه الله، وما لمس في هذه اللقاءات من ثقافة واسعة لدى العثيمين، وغيرة شديدة على وطنه وقضايا أمته.

وبكلمات قليلة بليغة يذكر الدكتور محمد عدنان البخيت، من الأردن، ما كان يتصف به العثيمين، عليه رحمة الله، من التواضع والتقشف والبعد عن الأضواء، والإنسانية ودماثة الخلق.

ومثله قال الدكتور حسين بن عبد الرحمن العذل، من السعودية، في حديثه عن

ذكرياتـه مـع العثيمـين، رحمه الله، فذكر تواضـعه الجم وزهده الذي وصـل إلى حد التقشف، وصدق الحديث، وأمانة الرواية.

رحم الله عبد الله العثيمين، ورفع درجاته في عليين.

إبراهيم باجس عبدالمجيد

إهداءات إلى مكتبة

- مذكـرات أحمـد علي بن أسـد الله الكاظمـي، أعدها للنشـر د. فهـد بن عبدالله السماري، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.
- محمد أسـد من غاليسيا إلى البلاد العربية ١٩٠٠ ـ ١٩٢٧م، جونثر فندهاغر، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.
- الكتاتيب النسائية في إقليم الوشم خلال قرن (١٢٨١-١٣٨١هـ)، عبدالله بن ناصر المجيول، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
- السـجل التوثيقـي للقاء العلمي عن الأديب الشـيخ عبدالله بـن خميس، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٧ هـ/ ٢٠١٦م.
- الوجه بعد توحيد المملكة العربية السعودية ١٣٥١-١٣٧٣هـ/ ١٩٣٢-١٩٥٣م دراسة توثيقية، نورة بنت مصلح الحربي، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- جهود المملكة العربية السـعودية في خدمة الأسـماء الجغرافية، عبدالله بن ناصـر الوليعـي، دارة الملـك عبدالعزيز، اللجنـة الوطنية للأسـماء الجغرافية في المملكة العربية السعودية، ط١، الرياض، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- عبدالعزيز أحمد السـديري (١٣٢٧-١٣٧٥هـ)، نايف بن علي السـنيد الشـراري، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
- فهرس ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، عثمان بن عبدالله بن بشر، قدَّم له ودرسه هشام بن محمد السعيد، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- فـؤاد حمزة مذكـرات ووثائـق (١٣٤٢-١٣٧٢هـ/ ١٩٢٤-١٩٥١م)، أعدها للنشـر وعلـق عليها د. فهد بن عبدالله السـماري، دارة الملـك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- مصطلحات التاريخ العثماني، معجم موسوعي مصوَّر، صالح سعداوي صالح، دارة الملك عبدالعزيز، ط١، الرياض، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

* Historie de la PENINSULE ARABIQUE, Nathalie Wourm, Fondation du Roi Abdul Aziz, 2016

* A HISTORY OF THE ARABIAN PENINSULA, EDITED BY Fahd al-Semmari, TRANSLATED BY Salma K. Jayyusi, King Abdul Aziz Foundation,2010.